توفيق الحكيم



حديث مع الكوكب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ـــ محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
٢ ـــ عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
٣ ـــ أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
٤ ـــ شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
٥ ـــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧
٦ ـــ عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
٧ ـــ تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
٨ ـــ أشعب (رواية) ١٩٣٨
٩ ـــ عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
١٠ ـــ حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
١١ ـــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
١٢ ـــ راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
١٣ ـــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
١٤ ـــ حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
١٥ ـــ سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
١٦ ـــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
١٧ ـــ تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
١٨ ـــ بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
١٩ ـــ سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
٢٠ ـــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـــ رسائل) ١٩٤٣
٢١ ـــ الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينتجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادىء : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينيان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينيان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ـــ لندن .

الشهيـــد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزيـــة) جمع محمـــــود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعـات الجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة ـــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان ـــ لندن .

مقدمة

هذا الكتاب بما يحويه من مناقشات مفترضة مع كوكبنا الأرضى ليس المقصود به إقرار حقائق جديدة أو الكشف عن حقائق مجهولة : إنما هى مناقشات فيما يبدو لنا أنه من البديهيات . فليس هناك فى واقع الأمر بديهية إلا وفى داخلها عوالم تحتاج إلى غوص وبحث .

والغرض الحقيقى من هذا الكتاب هو إذن تحريك الفكر ، وليس شحن الرأس ، ولا الإقناع برأى ، إنما هى الدعوة إلى التفكير والتحليل لكل شىء . فنحن فى العالم العربى نمر الآن بمرحلة تحتاج منا إلى فحص وتمحيص لكل ما استقر فى وجداننا من مسلمات ، تمهيدا لإقرار العقلية العلمية ، التى لا يمكن بغيرها أن يستيقظ عندنا الذهن ، ويتوقد الفكر ويتألق العقل ليلاحق حضارة العصر .

ما هى البشرية

فى جبل المقطم مغارة ، كان يسكنها جماعة من الدراويش أصحاب القلانس البنية الطويلة .. يعيشون هناك عيشة النسك والعزلة ، وإن كانوا فى بعض الليالى يقيمون حفلات للذكر ، يحضرها بعض الزوار ، وتسمع فيها الترانيم الدينية الجميلة ، بمصاحبة الناى والدفوف .. ذهبت إلى هناك مرة برفقة بعض الأصدقاء ، حيث استقبلنا هؤلاء الدراويش بالترحاب .. وأعجبنى المكان ، وهذا النوع من الحياة . كان ذلك منذ زمن طويل . ربما قبيل الحرب العالمية الثانية .

ولا أدرى بعد ذلك ماذا حدث لهؤلاء الدراويش . لم أعد أسمع عنهم خبرا . وأغلب الظن أنهم رحلوا عن هذه المنطقة .. ونسيت أمرهم .. إلى أن قادتنى قدمى أخيرًا إلى جبل المقطم .. فتذكرت تلك المغارة ، واشتقت أن أراها .. وجعلت أبحث عنها .... ولم يكن الأمر سهلا .. فقد تغيرت المعالم هناك .. ولكن ذلك لم يضعف منى العزم .. بل ضاعف من همتى وإصرارى .. وجعلت أوغل فى الجبل

بحثا عن المغارة .. حتى بعدت عن كل سكة مطروقة .. وأخيرًا صادفتنى مغارة . ربما لم تكن هى بالذات تلك المغارة القديمة .. لكنها على كل حال اجتذبت اهتمامى . وأغرتنى بدخولها والنظر فى أرجائها .. كانت خالية خاوية موحشة .. والضوء فيها قليل .. لم أتبين فيها ما يسترعى الانتباه ، ما عدا حفرة فى وسطها تكاد تشبه البئر . فتقدمت إليها لأطل برأسى على ما بداخلها .. كانت بالفعل بئرًا عميقة ، لا يرى لها قرار .. ولم يكن من الميسور التحقق مما إذا كانت تحوى ماء بمجرد النظر . كان لا بد أن ألقى فيها حجرًا لأعرف .. ولكن الحجر سقط دون أن ينبئ عن شىء ، كأنما ألقى فى الهواء .. إنه إذن جب عميق يبتلع الأشياء ابتلاعا .. ومع ذلك خيل إلى أنى أسمع صوتا ينبعث من الأغوار .. إنه صوت ليس مميزا ولا محدَّدا .. إنه أشبه بالتنفس .. تنفس طويل مستمر غير منقطع .. إنه ليس تنفس إنسان .. ولا يمكن أن يكون كذلك .. إذن لمن يكون ؟.. ووجدت نفسى أصيح فى البئر على الرغم منى :

— من أنت ؟!

فسمعت صوتا يرتفع من البئر :

— من أنت ؟!

إنه إذن رجع الصدى .. صدى صوتى أنا .. وقد أعجبنى هذا

الصوت .. فقلما يتاح للإنسان أن يستمع إلى صوته . وهو عندما يتاح له ذلك فإنه يبدو له كأنه صوت شخص آخر .. وما تمالكت أن أبديت إعجابى قائلا بصوت مرتفع :

— صوت جميل ..!

فجاءنى الصوت من أعماق البئر يقول :

— شكرًا ..!

فارتعدت رعدة شديدة .. إنه ليس رجع الصدى بكلامى .. هذا كائن آخر موجود معى فى هذا المكان .. وازداد خوفى لمجرد الفكرة .. وهممت أن أقفز خارج المغارة هربا بجلدى . ولكن شيئا جمدنى فى موقفى .. ومرت الخواطر سريعة فى رأسى .. واستعدت الصوت الذى سمعته منذ قليل . لقد قال « شكرا » ..

إنه إذن لا يريد بى شرا .. ولكن .. هل خوفى هو من شر يمكن أن يلحقنى ؟.. لا .. إن الخوف هنا مختلف .. إنه ليس الشر ولا الضرر .. فأنا عندما يواجهنى عدو بمسدس أو بسكين ، فإنى بالطبع أخاف ، ولكنه خوف للحظة . ثم لا ألبث أن يتركز اهتمامى فى البحث عن الطريقة التى أدرأ بها الخطر .. أما هذا الخوف فليس مصدره الخطر .. فقد نخاف عندما نشعر بوجود امرأة رائعة الجمال لا تحمل لنا غير الابتسام والسلام ، تظهر لنا بصورتها أو بصوتها أو

بتنهداتها ، أو بمجرد الإحساس بحضورها دون أن نعرف من أين جاءت ، ويعجز عقلنا البشرى عن تعليل سر وجودها واختفائها ، فإن عجز العقل عن تعليل ما لا يتمشى مع منطقه كفيل بأن يحدث فينا هزة الخوف .. قلة من الناس من يستطيع العقل فيهم أن يستعيد ثباته بسرعة ويواصل التفكير الهادئ ، ويكيف منطقه مع الموقف غير المنطقى .. حاولت هذا الأمر العسير .. وجمعت كل شجاعتى وقلت بصوت لم أنجح فى ستر الرعدة التى تهز نبراته :

— هل أنت .. عفريت ؟!

فجاء الصوت من البئر يقول :

— ما معنى عفريت ؟!

قيلت فى لهجة من البراءة والصدق توحى بالثقة والاطمئنان . فبادرت أقول :

— أذن فأنت روح من الأرواح !

فقال :

— فسر لى ماذا تقصد ؟!

فقلت مفسرًا :

— روح أحد الموتى ، أوجنى من الجن ، أو عفريت من العفاريت .. هذا كل ما نفسر به الكائنات الخفية .

فقال الصوت :

ــ لست كائنا خفيا .

فصحت به :

ــ إذن فأنت آدمى .

ــ مع الأسف .. لست آدميًا .

جاءت فى لهجة هادئة لا تخلو من سخرية طفيفة .. ولكنها جعلتنى أرتعد مرة أخرى .. ليس آدميًا .. وليس روحًا ولا جنيًا ولا عفريتا .. ماذا يكون إذن ..؟

ــ وهل يهمك كثيرا أن تعرف من أكون ؟!

ــ بالطبع يهمنى .. أليس من الضرورى أن أعرف من الذى أحادثه ويحادثنى ..؟

ــ ربما كنت تحادث نفسك ..!

ــ نفسى ؟!

بدا لى الأمر مستحيلا .. إلا إذا كنت نائمًا أحلمَ أو مخمورًا أهذى .. وأنا واثق أنى فى تمام اليقظة وكامل الوعى .

قال الصوت :

ــ إذن فليكن الأمر كما ترى أنت .. إذن أنت تتحدث الآن مع غيرك ..

ــ بكل تأكيد .

ــ ألم تستمع إلى برغوث يتحدث إليك ؟

ــ برغوث ؟!

ــ نعم ، برغوث من البراغيث التى تسير وتقفز على جسمك ..

ــ برغوث يتحدث إلى أنا ؟!

ــ ويسألك من تكون ؟

ــ هذا شيء مضحك ..!

ــ أجب .. إنه يسألك من تكون ؟.. ماذا يكون جوابك ؟

ــ جوابى لن يفيده .. لأنه لن يدرك له معنى ..

ــ إذن كف عن سؤالى من أكون ؟

ــ ولكنى لست برغوثا ..!

الإنسان والبرغوث

ــ أنت أضعف من البغوث قدرة .. فهو بالنسبة إلى حجمه يستطيع أن يقفز قفزة تعادل قفزتك من الأرض إلى سطح عمارة من عشرين طابقا .. فهل تستطيع أنت ذلك ..؟

ــ إنى لا أقفز بجسمى .. بل بفكرى ..

ـــ جواب مقنع .. إذن يمكنك أن تدرك بفكرك ما لا يمكن أن تدركه بجسمك .. وعلى ذلك فمن الممكن أن أقول لك من أكون ..

ـــ وثق أنى سأفهمك .

ـــ لنعد مرة أخرى إلى البرغوث.. ما الذى يفعله البرغوث؟.. إنه يعيش على جسمك .. يستمد منه مادة حياته وغذائه .. يجد فيه الدفء والطعام ، ويغرس فى بشرتك إبرته ويستخرج منها الدم .. أنت أيضا تعيش على الأرض ، وتجد فيها مادة حياتك وغذائك ، وتغرس بريمتك فى بشرتها لتستخرج منها البترول .

ـــ ما معنى ذلك ؟!

ـــ ألم تفهم بعد ..؟

ـــ زدنى فهمًا .

ـــ إذا كنت أنت البرغوث فهناك الجسم الذى تعيش عليه .. أتعرف هذا الجسم ؟

ـــ بالطبع .. إنه كوكب الأرض .

ـــ أنا كوكب الأرض ،

ـــ أنت ؟!

ـــ نعم أنا .. هل فى هذا ما يدهش ؟!

ـــ ولكنك تتكلم .. هل الكوكب يتكلم ؟!

ـــ ولم لا ؟!.. إنه كائن حى .. أتنكر أن الكوكب كائن حى ؟!.. إنه يتحرك ويسير وينجذب ويقاوم القوة الجاذبة التى تريد ابتلاعه .. ربما كان استغرابك هو لحديثى معك بلغتك البشرية ، كما يستغرب البرغوث لو حادثته أنت بلغته البرغوثية .. ولكن دعك من مسألة اللغات المختلفة بين الكائنات .. هناك لغة واحدة مشتركة بين الموجودات جميعا : هى الحياة ذلك الجوهر والمظهر واللغة التى تجمع بين أكبر الكائنات من مجرات وسدم وأجرام ، إلى أصغر الحشرات والفيروسات ، إلى أضأل الجزيئات والألكترونات .. الحياة واستمرارها هى لغة الجميع .. وكل يستخدم فى التعبير عنها لهجته الخاصة ، النابعة من طبيعة تركيبه .

ـــ إذن لغتك الحقيقة باعتبارك كوكبا ليست هى هذه اللغة التى أسمعها منك الآن .

ـــ بالطبع لغتى شيء آخر .. إنها لا تقوم على الكلمة ، ولكنها تقوم على الحركة .. لغتك أقوال ولغتى أفعال .. وإذا كنت أخاطبك الآن بلغتك الكلامية ، فذلك لكى تستطيع أن تفهم عنى وأن يدور بيننا حديث .. ولكن الحديث الذى يدور عادة بين كوكب وكوكب فى محيطنا نحن معشر الكواكب والأجرام ، إنما يقوم على سياسة تحركاتنا وحساب المسافات التى بيننا ، والأفلاك التى نسير فيها ، والجاذبيات

التى نتعرض لها ، والإشعاعات التى تصل إلينا أو تصدر عنا ، وغير ذلك من دقائق وتفصيلات قد لا يدرك عقلك الآن أسرارها .

— إذن أنت وغيرك من الكواكب أصحاب عقول ذكية تفكر وتحسب ..

— لا .. إن العقل عندنا ليس مثل العقل عندكم .. عقول البشر هى عقول خاصة بهم وحدهم ، لتلائم تركيبهم المادى والمعنوى وظروف وجودهم بين كائنات أخرى أقوى منهم .

حيوان ضعيف الأسلحة

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن الانسان هو حيوان ضعيف جدًا بالقياس إلى غيره من الحيوانات والحشرات التى يعيش بينها . فليست له الأنياب والمخالب التى للضوارى والكواسر ، ولا السموم التى عند الحيات والعقارب ، ولا الجناح القوى الذى للطير المهاجر من قارة إلى قارة ، ولا القدرة المعجزة التى للسمك العابر من محيط إلى محيط .. إنه مجرد من القوة الذاتية التى تبقيه حيا بين هذه المخلوقات بأسلحتها المركبة فيها . وعندما أراد أن يعتمد على أعضائه كغيره من الحيوان ،

للحصول على غذائه ، لم تسعفه هذه الأعضاء القاصرة ، فليس له سيقان تلحق بالغزال ، ولا عضلات تفتك بالجاموس ، فهدتـه ضرورة الحياة إلى البحث عن بديل لأعضائه الضعيفة ، ففكر فى استخدام ناب ومخلب من قطع العظام والأحجار .. وكان هذا مبدأ اكتشاف قدرة جديدة عند هذا الحيوان الأعزل ، قدرة التفكير الخلاق ، الذى يبتكر له الأدوات البديلة التى تمكنه مما تعجز عنه أدواته العضوية الطبيعية ، وبهذا الاكتشاف الخطير أخذت تنمو فى مخه خلايا معينة نموًا مطردًا ، حتى أصبحت شبه عضلة جديدة يمكن تسميتها عضلة التفكير اعتمد عليها فى صنع ما يحتاج إليه ، وفى خلق ما حرم منه ..وبها صنع بيديه الآلات التى تمده بغذائه، والأسلحة التى تحميه من أعدائه ، وخلق بنفسه أجنحة الطائر التى جرد منها ، وزعانف السمك السابح والغائص فى الأعماق .. وهكذا استطاع هذا الحيوان الضعيف أن يعيش بين الأقوياء ، بما أمكن لفكره النامى أن ينتج له ما يحميه وما يقويه ، وما يغنيه عن عطاء الطبيعة .. وبانتقال هـذا الحيوان من الطبيعى إلى الصناعى ، انتقل إلى النوع الذى تسمونه « الإنسان » .

سلاحه العقل الخلاق

ـــ إذن التفكير هو سلاح الإنسان الوحيد

ـــ نعم التفكير الخلاق الذى يصنع له قوته .

ـــ التفكير إذن قوة .

ـــ بدون شك .. والقوة الوحيدة للإنسان .

ـــ ولماذا الإنسان فقط ؟!

ـــ لأن الكائنات الأخرى لا تحتاج إليه .. إن طائرا صغيرا مثل السمانة لها من قوة العضلات ما تحرك به جناحا يطير عبر قارتين وبحر واسع دون توقف ، قوة أكبر من قوة محرك طائرة صنعها الإنسان حتى الآن .

ـــ إذن التفكير الخلاق هو شيء خاص بالإنسان وحده .

ـــ أعتقد ذلك .. إنه شيء إنسانى بحت .. خلايا نمت فى مخ الإنسان ، كما قلت لك ، لظروف خاصة به ، حتى يستطيع أن يعيش .. قوة الحياة تدفع كل كائن إلى إيجاد وسيلته الضرورية لحياته .. والتفكير الخلاق هو الوسيلة الضرورية لحياة الإنسان .. ولكنه لا ضرورة له عند الكائنات الأخرى ..

ـــ لقد كنت أظن التفكير هو نعمة الإنسان الكبرى !

ـــ الحياة لا تعرف النعمة أو النقمة .. هذه ألفاظ إنسانية .. إن الحياة لا تعرف غير ضرورة الحياة . إن التفكير الخلاق قد خلق لكم فيما خلق لغات وتصورات .. ذلك تصوركم أن كل شيء على الأرض قد وجد من أجلكم .

ـــ أو ليس هذا صحيحا ؟!

ـــ لو كان البرغوث يتصور الأشياء مثل تصوركم ، لظن أن القميص الذى ترتديه إنما وجد ليحميه .. إن جسمك العارى المعرض للشمس والهواء يحول دون استقرار البرغوث على سطحه ليستمتع بشرب دمك ، ففى قميصك إذن وقاية له وحماية ، وله عندئذ الحق أن يعتقد أنك تلبس القميص من أجله .. أنا أيضا لى قميص تسمونه أنتم « الغلاف الجوى » وتتصورون أنه وجد وقاية لكم وحماية من الأشعة الكونية القاتلة ..

ـــ لماذا تحاول إقناعى بأن الفكر الذى أباهى به هو مجرد ضرورة حياة ؟!. ألم أستطع بالفكر والتفكير الخلاق أن أخرج عن جاذبيتك أيها الكوكب ، وأنت مصدر حياتى ، لأكتشف الفضاء المجهول ؟

ـــ فى هذا أيضا ضرورة لحياتك .. فما دام الفكر الخلاق هو سلاح حياتك ، فلا بد من شحذ هذا السلاح باستمرار ، ولا بد

لجهاز فكرك من العمل والحركة الدائمة ، لأنه إذا توقف جمد وصدئ .. وعندئذ يخشى من ارتداده إلى الوراء فى اتجاه المرحلة الأولى المتاخمة للحيوانية .. وبذلك يعود فيضعف عن مواجهة أقوياء الطبيعة . إن أقوى الضوارى تقف صاغرة أمام إنسان واحد يملك قوة الفكر .. ألم تشاهد مروض الوحوش فى السيرك ، كيف يقف وحده بفكره أمام صف من الأسود والنمور ؟!

— صدقت فى هذا .. حتى بين الإنسان وجنسه .. إن دولة صغيرة مثل هولنده ، تعدادها سبعة ملايين نسمة ، استطاعت أن تحكم عبر بحار ومحيطات شعبا ضخما تعداده أكثر من سبعين مليونا وذلك بامتيازها الفكرى وحده ...

— هذا سلاحكم وحدكم معشر الإنسان : الفكر .

— نعم .. والفكر الخلاق ..

وأطرقت برأسى أتأمل فى صمت أشياء كثيرة طرأت على خاطرى . وساد سكون فى المكان .. وخشيت أن أنهى حديثى مع الكوكب الأرضى عند هذا الحد فيضيع منى صوته ولا أملك استعادته بعد ذلك ، فلزمت مكانى ، حرصا على استمرار المحادثة .. ثم جعلت أرتب فى رأسى ما أريد مناقشته فيه من مسائل ..

المعرفة الإنسانية .

وقطعت حبل الصمت قائلا له :

— فهمت عنك أن كل موجود له طريقته الخاصة فى الاحتفاظ بالحياة ، تدفعه إليها قوة الحياة وضروراتها ، وأن الإنسان كان حيوانا ضعيفا مقضيا عليه بالفناء لو لم يوجه قوة الحياة إلى الوسائل التى يستطيع بها أن يقاوم ويعيش .. وهى ليست وسائل مباشرة ذاتية عضوية كاملة فيه ، شأن غيره من الحيوانات الأخرى ، ولكنها وسائل غير مباشرة ، خارجة عن ذاته ، ينتجها هو بنفسه ، ويصنعها عن طريق الآلة المفكرة اكتشفها ونماها واعتمد عليها . كل هذا مفهوم . ولكن الإنسان ليس مجرد آلة مفكرة تنتج له ما يحتاج إليه .. حتى وإن وصلت هذه الآلة المفكرة إلى ما نسميه اليوم العلم النظرى والتكنولوجيا التطبيقية . هناك مقومات أخرى للإنسان واهتمامات يختص بها وحده دون الحيوان مثل الأديان والفنون . بماذا تفسر ذلك ؟

فأجاب الكوكب بصوت عميق وواضح :

— ولماذا تفرق بين العلم والدين والفن ؟.. هذه كلها منتجات الفكر عندما بدأ يتحرك ويكتشف. فالإنسان الأول القريب من

الحيوان عندما انطلقت فى رأسه الشرارة الأولى تكشف له عن شكه فى كفاية أعضائه وعضلاته الطبيعية للقيام بالمهام المطلوبة ، كان هذا الشك هو مبدأ الفكر العلمى النظرى وهداه هذا الفكر العلمى الأول إلى فكرة الاستعانة بأدوات مصنوعة ، ثم بدأ من هذه الفكرة إلى التطبيق العملى ، وهو اختيار نوع من العظام أو الأحجار جعل ينحتها ويهذبها بقطع أخرى صلبة حادة من الصخور ليصنع منها السكاكين والرماح وبدأ هجومه وصيده للجاموس الوحشى الضخم ، والوعول الكبيرة حتى إذا أوى إلى الكهف الذى يعيش فيه خطر له أن يرسم على جدرانه بقطعة من الحجر شكل الجاموسة أو الوعل الذى طارده .. لماذا ؟.. ليزداد معرفة به ، عن طريق تحديد شكله ، وخلق صورة له بيديه .. إن عادة خلق الأشياء بيديه قد أمتعته واستحوذت عليه .. وأصبحت صفقة الخلق من أميز صفات الإنسان ، وأصبح يوجه الآلة المفكرة إلى الخلق الفنى ، لينمى ملكة التصور التى تعينه على الخلق العلمى .. فكلما تطور العلم احتاج إلى طاقة من التصور .. وكلما تطور الفن استطاع أن يخلق ما لم توجده الطبيعة من موجودات ، فيثرى الفكر بطاقات وإشعاعات من التصور والإيحاء والإلهام ، وتصبح آلة الفكر البشرى أقدر على الابتكار .. إن العلم والفن فرعان فى شجرة المعرفة الإنسانية ..

— وهل شجرة المعرفة هذه خاصة بالإنسان وحده ؟

— بالتأكيد .

— ألا توجد كائنات أخرى تشارك الإنسان فى شجرة المعرفة هذه ..؟

— ماذا تقصد بالمعرفة ؟.. إذا كنت تقصد المعرفة العقلية الواعية التى يستوعبها عقل الإنسان وفكره ، فهى إذن شىء خاص به ، لأن طبيعة عقل الإنسان وظروف تركيب جهازه الفكرى والضرورات التى دعت إليه وأدت إلى نموه وتطوره لا يمكن أن توجد فى كائن آخر ، إلا إذا كانت له نفس الطبيعة ، ومر بنفس الظروف ..

— أولا يوجد نوع آخر من المعرفة غير المعرفة الإنسانية ؟

— بالطبع توجد أنواع أخرى .. ولكن لماذا تسأل عنها وأنت لا يمكن أن تدركها .. إن كل ما تدركه لا بد أن يمر من خلال جهازك العقلى الإنسانى .. وهذا الجهاز لا يدرك ولا يقتنص إلا نوعا خاصا من المعرفة .. وهو النوع الملائم لتركيب عقلك وفكرك ..

— ولكنى أستطيع أيضا أن أدرك أشياء بدون أن تمر بجهاز عقلى وفكرى .. أدركها بالحدس والإحساس .

— هذا صحيح .. وهذا ما يشاركك فيه الحيوان وبعض الحشرات .. الإدراك بالحس الخفى لما سوف يقع من نوازل وعواصف وزلازل .. ولكن هذا النوع من المعرفة كنت أكثر قدرة

عليه وامتلاكا له فى مرحلتك الأولى ، يوم كنت أقرب إلى الحيوان ..

— ولكنى اليوم أدرك به الأسمى والأعظم .. أدرك به الله ..

— نعم .. الدين .. إنه أيضا شىء إنسانى ..

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن أى كائن آخر غير الإنسان لا يمكن أن يدرك شيئا اسمه الدين .. فالإنسان الذى مارس الخلق فهم أن كل شىء لا بد له من خالق .. وهذا الفهم أراح عقله القلق المتسائل عن أصل وجوده .. لأن حركة العقل الإنسانى لا بد أن تدور فى مساحة لها بداية ونهاية .

— وهل تنكر أن الإنسان باكتشافه الدين قد اكتشف شيئا ذا نفع عظيم ؟

— ومن ينكر ذلك ؟.. إن اكتشاف الدين قد حمى الإنسان من الردة إلى الحيوانية .. فالإنسان عندما يعيش فى جماعات فإنه يشبه القطيع ، تتصادم فيه المصالح ، وتتنازع الأغراض ، ويظهر الشر بألوانه ، فإذا استشرى فقد أكل الناس بعضهم بعضا ، وفنى الإنسان ، وكان لا بد للخير من أن يوازن الشر ويقاوم طغيانه ، وكانت تلك هى مهمة الدين فى المجتمع ..

— إذن الدين والعلم والفن هى اكتشافات إنسانية ، وهى تكون الفروع فى شجرة المعرفة عند الإنسان ..

ـــ طبعا .. وبدونها يجهل الإنسان نفسه ، ويغفل عن قدراته ويعمى عن المحيط الذى يعيش فيه والكائنات القوية التى حوله ، وعندئذ يعود الحيوان الضعيف الذى لا يقوى على مواجهة الحياة ولن يلبث حتى ينقرض ..

ـــ وهل تعتقد أن الإنسان يمكن أن ينقرض يوما ؟

ـــ ممكن جدا .. كل كائن يمكن أن ينقرض ، وقد انقرض فعلا ، كما انقرض حيوان ضخم مثل الدينوصور يوم سقط سلاحه وضعفت مقاومته أمام القوى التى حوله تريد ابتلاعه .. وسلاح الإنسان الوحيد هو جهاز عقله المتحرك دائما بالفكر الخلاق ..

ـــ إذن الخطر على الإنسان هو جمود عقله .

ـــ بدون شك .. وتاريخ البشرية يشهد بذلك .. إن الحضارة وليدة العقل المتحرك المبدع .. فإذا تجمد هذا العقل وقفت الحضارة ، وبوقوفها تأتى حضارة أخرى وليدة متحركة فتبتلعها .

ـــ كل ما يجمد ويقف يتعرض إذن للابتلاع ..؟

ـــ بالطبع .. حتى أنا ذلك الكوكب الذى تعيش أنت على سطحه ، لو توقفت عن الحركة أتدرى ماذا يحدث ؟.. أفقد توازنى ولا أستطيع أن أقاوم جاذبية الشمس القوية ، وسرعان ما تبتلعنى ..

الوجود والعدم :

ـــ أنت تتحرك وتداوم الحركة ، منذ أكثر من أربعة آلاف مليون سنة .. لماذا ؟.. ما هى الغاية ؟.. ما هو الهدف ؟.. ما آخرة ذلك ..؟

ـــ هذه أسئلة إنسانية لا معنى لها عندنا .. الإنسان وحده بجهازه العقلى القائم على مقاييس وأبعاد زمنية ومكانية محددة يتصور كل شىء ، ويبنى كل شىء على أساس السبب والنتيجة والبداية والغاية والأول والآخر .. أما نحن فخارج كل ذلك .. كل شىء عندنا يتلخص فى أمر واحد : الحياة والوجود .

ـــ والعدم .

ـــ أى عدم ؟. ماذا تقصد بالعدم ؟

ـــ العدم .. انتهاء الوجود .

ـــ الوجود لا ينتهى .. كلمة النهاية عندكم أنتم وفى لغتكم أنتم لأسباب تتعلق بتركيب جهاز عقلكم ، كما قلت لك ..

ـــ إذن لا يوجد عدم ؟

ـــ بالضبط .. لأن وجود العدم معناه أنه دخل فى الوجود .. لغتكم نفسها تفضى إلى هذا المعنى .. قولكم إن العدم موجود يعنى أنه داخل فى نطاق الموجودات .. وما دام العدم عندك داخلا فى نطاق

الوجود ، فكيف تتحدث عن انتهاء الوجود ؟

ــ هذا تلاعب بالألفاظ ..!

ــ إنها نفس لغتكم التى اخترعت هذه الكلمات التى لا معنى لها .. وعندما تريد هذه اللغة أن تفسر شيئا عسيرا ، فإنها تقع فى التناقض المضحك ..!

ــ نحن دائما نتحدث عن الوجود والعدم ..

ــ خطأ .. لا يوجد غير الوجود .

ــ والموت أذن ؟

ــ أى موت ؟!

ــ أتنكر أيضا وجود الموت ؟!

ــ لا أعرف هذه الكلمة .

ــ هذا شىء عجيب ..!

ــ وضح لى ماذا تقصد بالموت ؟

ــ افرض أن التعادل قد اختل بينك وبين الشمس ، و لم تستطع مقاومة طغيان قوتها وابتلعتك ، ماذا يكون حالك ؟.. هل تعتبر نفسك حيا ..؟

ــ بالطبع .. إنى حى دائما .

ــ فى جوف الشمس ؟!

— نعم .. فى جوف الشمس .. لن أكون بشكلى الحالى .. ولكنى بمادتى وطاقتى سأكون هناك .. لا موت ولا فناء للمادة والطاقة .. ولكنها تحولات وتداخلات وتغيرات فى الأشكال والأوضاع دائمة الحركة لا تنتهى .. الحياة وجود دائم .. وكل موجود يتحرك .. حتى ما تسمونه أنتم الجماد .. الحركة هى مظهر الحياة ومخبرها .. والحياة هى حقيقة الوجود .. الحياة هى الحقيقة الوحيدة فى الكون ..

— تريد أن تقنعنى أنه لا يوجد موت ؟!.

— فى عرفى أنا لا أدرى فيما تتحدث ..!

— نحن نعيش فى كل يوم مع الموت .. ونرى الناس من حولنا فى كل لحظة يموتون ، من نعرف منهم ومن لا نعرف ، من نحب ومن نكره ..

— تقصد بالموت إذن تحول الحياة من صورة إلى أخرى ..؟

— أقصد الموت بمعناه الذى أفهمه أنا ..

— ما تقصده بالموت وما تفهمه هو الاختفاء الخارجى للحركة ، والتغير الظاهرى للأشكال التى اعتدتم أن تروا عليها الأحياء .. أليس الأمر كذلك ؟..

— نعم .. ولكن المهم عندنا هو أن نرى الأحياء على الشكل

والوضع والصورة التى اعتدنا أن نراهم عليها ، فإذا تحولوا إلى شيء آخر فقد فقدوا عندنا كل المعنى ..

ـــ حقا .. تلك هى مشكلتكم !

ـــ مشكلتنا ؟!

ـــ عالم المعانى الذى تقيمه عقولكم !

ـــ وكيف كنت تريد لجهازنا العقلى أن يعمل دون أن ينتج عالما للمعانى ، يصنف فيه الأشياء ، ويجعل لكل شيء اسما ومدلولا ومعنى ..!

ـــ إذن دع هذا العالم المصنوع صنعا فى معملك العقلى يعمل فى نطاق الأغراض البشرية المحدودة التى صنع من أجلها ، ولا تحاول أن تفسر به عالما أعظم وأكبر .

ـــ أوَ لم أفسر به وأكشف عن قوانين استطعت بها أن أخرج عن نطاق جاذبيتك وأنطلق إلى كوكب آخر ؟!

ـــ ما فعلته ـــ أيها الإنسان ـــ هو ما يفعله البرغوث عندما يخرج من جسمك ويقفز منطلقا إلى جسم شخص آخر على مقربة منك ..! ولكن البرغوث لا يمكن أن ينطلق إلى جسم آخر فى مدينة أخرى ؟!

ـــ لماذا تشبهنى دائما بالبرغوث ..؟

ـــ لأنك أنت والبرغوث سيان ، فى نظر من ينظر إلى سطحى من

علو شاهق .. ألم تنظر إلى الأرض وأنت محلق فى طائرة على ارتفاع كبير ؟.. هل ترى الإنسان ؟.. قد ترى الجبال والبحار ، وإذا ارتفعت أكثر فلن ترى غير السحب .. ويستوى عند ذلك فى الرؤية البرغوث والإنسان وجحور الحيوان ومدن النمل ومدن القاهرة ولندن وباريس ..!

ـــ هناك فرق بينى وبين البرغوث .. هو أنى أعرف ما هو البرغوث ، وهو لا يعرف من أنا الإنسان ..!

ـــ هذا صحيح .. ولكنه هو ليس فى حاجة إلى أن يعرف من أنت .. أما أنت فمحتاج أن تعرف من هو .. لأنك إذا جهلته فلن تستطيع حماية نفسك منه ومن استنزافه لدمك .. ولقد قلت لك منذ قليل ، وحذار أن تنسى ما أقول .. وهو أن ضعفك بالنسبة إلى جسمك لن يجعلك تقاوم أعداءك إلا بسلاح المعرفة ..

الوعى والشخصية

وغرقت مرة أخرى فى صمت موقت ، ألتقط الأنفاس وأرتب فى رأسى بعض أسئلة ، طار منها ما طار ، بحكم اللهفة والخشية من أن أفقد هذا الصوت وينتهى الحديث فجأة لسبب أو لآخر ، وأنا حريص

على هذه الفرصة النادرة ، محادثة كوكبنا الأرضى ، الذى نحسبه جسما جامدا وهو كائن حى يتحرك ويصدر عنه كلام بصوت لا تسمعه آذاننا ، وبلغة لا تعيها أفهامنا .. ولكنه شاء اليوم أن يحادثنى بلغتى التى أفهمها ..

سألته ..

ـــ أريد الآن أن أعرف منك شيئا يتعلق بك .. بصلتك بزملائك الكواكب الأخرى القريبة إليك .. لقد كنت تتحدث عن البرغوث الذى يسير على جسمى .. هذا البرغوث لا يعرف بالطبع شيئا عن زملائى القريبين منى . ولكنى أنا أريد أن أعرف ، ما دام الفرق بينى وبين البرغوث كما تقول ، هو حاجتى الدائمة إلى المعرفه ..

ـــ ما الذى تستطيع أنت أن تفهمه من ذلك ؟!.. كل ما يمكننى قوله لك هو أن صلتى بزملائى الكواكب الأخرى محسوبة بدقة ، حتى لا يحدث بيننا تصادم ..

ـــ عجبا !.. ولماذا يحدث بيننا نحن البشر فى كثير من الأحيان تصادم ؟

ـــ أوَ تقارن عقولكم بعقولنا ؟!

ـــ وهل لكم عقول ؟!

ـــ لو كنا مجانين لوقع التصادم بيننا فى كل لحظة ، ولما استطعت

الحياة أنت وغيرك من الأحياء ..

ـــ لا شك أن عقولكم من طراز آخر غير عقولنا البشرية ..؟

ـــ طبيعى .

ـــ وهل هى عقول واعية ؟

ـ ـ كيف تكون واعية وهى من طراز آخر غير طراز عقولكم ؟!

ـــ وهل الوعى خاص بنا ؟!

ـــ طبعا خاص بكم .. الوعى والعقل الواعى والشخصية الواعية المدركة لذاتها .. هذه ملكات إنسانية .. كان لا بد أن تنشأ عند الإنسان وتنمو بنمو ملكة التفكير الإبداعى .. وما دام الإنسان قد اضطر إلى ممارسة الخلق لظروفه التى تحدثنا عنها ، فلا بد أن يكون عقله واعيا لما يخلق ويبدع ، وواعيا بالضرورة لذاته المبدعة ..

ـــ هناك من الحيوان والحشرات ما يبدع أيضا .. هناك النحل ـــ مثلا الذى يصنع العسل داخل أشكال هندسية غاية فى الدقة والجمال ، فهل هو يملك العقل الواعى والشخصية الواعية ؟

ـــ لا .. لأن كل حيوان أو حشرة أو نبات يبدع شيئا أو شكلا إنما يصنع ذلك بأعضائه الطبيعية المغروزة فيه ، وليس بواسطة أداة أو آلة يصنعها قبل ذلك فى فكره .. ولو كان الإنسان قد أعطى ملكة غريزية كالنحل أو النمل ، أو سلاحا عضويا قويا كالأسد أو النمر لما احتاج إلى

أن يخلق لنفسه الأدوات والآلات التى تعينه على مواصلة الحياة ، ولما أدى ذلك إلى نمو العقل الواعى والشخصية الواعية ..

ـــ صدقت .. هناك بالفعل فرق بين إبداع الغريزة وإبداع العقل الواعى إن النحل عندما يبدع الأشكال الهندسية لا يعجب بها ، ولا يعى أنه أبدع شيئا جميلا .. أليس كذلك ؟

ـــ حقا ..

ـــ إنه آلة غريزية حية تنتج الجمال ، كآلة النسيج التى تنتج قماشا ذا رسوم جميلة .. هل آلة النسيج تعجب أو تحكم على ما تنتج ؟!.. لا بالطبع .. أما نحن البشر فنتأمل ونعجب ونقدر ونحكم .. لأننا لسنا آلات ، بل نحن نصنع الآلات ..

ـــ بالضبط .. وهكذا وجد عندكم أنت العقل الواعى ، وولدت الشخصية الواعية ..

ـــ وهذا أهم ما عندنا .. وأثمن كنز للإنسان .. هذا العقل الواعى الخلاق وهذه الشخصية الواعية المدركة .. وعندما نفقد ذلك ، نفقد كل شىء ، ونعتبر أنفسنا فى غيبوبة الموت ..

ـــ ولكنكم تبالغون عندما تظنون أن كل الكائنات العليا كائنات عاقلة .. هذا النوع من العقل !

ـــ أوَ يمكن وجود كائنات عليا راقية بدون العقل الواعى ؟!

ــ ولم لا ؟

ــ هذا شىء لا يمكن تصوره !

ــ بالطبع .. لأنك تتصور بعقلك الواعى هذا .. وخارج نطاقه لا تستطيع أن تتصور شيئا ..

الكائنات الخفية

ــ ولكننا نستطيع تصور كائنات خفية ، يقال إنها تحوم حولنا ولا نراها ، ونفزع إذا شعرنا بوجودها ، لأنها تصدم منطق أجهزتنا العقلية .. هل هى موجودة فعلا ؟.. وهل هى تهتم بنا ؟.. وهل تتدخل فى شؤوننا ..؟

ــ لا علم لى .. وهل تعلم أنت ما يدور فى رأس برغوث فى جسمك من أحلام وتخيلات ؟!

ــ ولكنك تعرف ولا شك ما يعيش فى جسمك من كائنات مرئية وخفية ...

ــ وهل تعرف أنت كل الفيروسات الخفية التى تعيش فى جسمك ؟

ــ إنى أحاول أن أعرفها .. أحاول أن أعرف كل شىء .. ولقد

قلتها أنت وقررتها : المعرفة وحب المعرفة هما سلاحنا الوحيد ..

ـــ سلاحكم أنتم معشر الإنسان ، الضعيف بأعضائه ، ولكنه ليس سلاحنا نحن .. إن المعرفة عندنا مغروزة داخلنا ، موضوعة فى طاقة حركتنا ودقة مسارنا ..

ـــ إنى لا أستبعد وجود فيروسات خفية فى جسمى لم تكتشف ، فهل تستبعد أنت وجود كائنات خفية غير مرئية لنا نحن البشر ؟.. لقد سمعت كثيرا عن أناس يقسمون أنهم يعيشون مع بعض هذه الكائنات .. معيشة أخوة ، أو معيشة زوجية ..

ـــ صدق .. والأمر لا يخلو من أحد فرضين : إما أن تكون هذه الكائنات موجودة بالفعل ، وليس كل موجود يمكن أن تراه حدقات عيونكم .. ولا بد أن الكون زاخر بكائنات مختلفة قد لا ترى بالعين البشرية ذات الطاقة المحدودة ، وربما كان لبعضها نوع من العقل ليس خلاقا ، ولكنه مدرك ذكى ، قد يتدخل بإرادة أو لا يتدخل فى المصائر والمسارات والأفلاك الأخرى لبعض الأحياء .. كل هذا محتمل .. كل شىء محتمل فى هذا الكون .. والكون أكبر من أن يكتفى بكم وحدكم ..!

ـــ هذا فرض .. والفرض الآخر ؟

ـــ الفرض الآخر هو أن تكون هذه الكائنات الخفية التى يقسم

لك البعض أنهم يعايشونها ، ليست سوى كائنات مصنوعة صنعا فى معمل العقل البشرى الخلاق .. إن قوة الخلق التصورى عند فئة من الناس تبلغ أحيانا حد التجسيد الفعلى أمام أنظارهم لما يتصورونه ، فإذا بها عندهم حقيقة واقعة يؤمنون بها .

الإيمان والتفكير

ـــ نعم .. الإيمان .. وهذه ملكة أخرى من ملكات الإنسان ، ينبغى أن لا نغفلها .. إنه سلاح آخر يقويه فى بعض المواقف والأحيان ..

ـــ أصيب .. الإيمان قوة دفع وإصرار فى مجال العمل ليس عند الإنسان وحده ..

ـــ أتريد أن تقول إن الحيوان يعرف الإيمان ؟!

ـــ الحيوان لا يعرف شيئا بالمعنى لكلمة « المعرفة » إن المعرفة الواعية هى من خصائص الإنسان وحده كما قلنا ، وغير الإنسان المعرفة عنده مغروزة فى داخله ، يمارسها دون حاجة إلى الوعى .. فالأعمال الشاقة التى يقوم بها النمل فى بناء بيوته وتخزين طعامه وتصفيف جيوشه ، ومثابرته العجيبة وإصراره العنيف .. كل ذلك

وراءه ولا شك قوة دافعة مصرة تشبه قوة الإيمان .

— ولكنى أتكلم عن إيمان العقيدة .

— هذا إذن تجده عند الإنسان وحده .. لأن العقيدة أساسها الفكرة ، والفكر الواعى ، وأكررها لك ، ملكة بشرية بحتة .. والإيمان بعقيدة فى مجال العمل والممارسة الفعلية .

— تعنى بذلك أن الإيمان مقترن بالعمل ؟

— طبعا .. لأنه قبل العمل لا يكون هناك غير التفكير .

— إذن التفكير سابق على الإيمان ؟

— بالضرورة .. لأن التفكير سابق على العمل .. إنك تفكر قبل أن تعمل .. إن العمل هو مرحلة التنفيذ التى تمهد لها مرحلة التفكير .. والتفكير متحرك .. لأنك تقلب فيه كل وجوه الرأى ، وتتحرك فى مجال التقليب والبحث والتنقيب والتردد والشك ، إلى أن تهتدى إلى الرأى الأخير ، والقرار النهائى الذى يجب أن يعتنق ، وعندئذ يوضع موضع التنفيذ .. فالتفكير هو حركة الشك ، والعمل هو ثبات اليقين ، والإيمان هو قوة الثبات والدفع والإصرار على التحقيق العملى ليقين العقيدة .

— هذا صحيح .. فكل الأديان قد بدأت بمرحلة الشك فى العقائد السابقة والتفكير فى دين جديد . وبعد مرحلة الشك والتفكير ،

جاءت مرحلة الاعتناق للعقيدة الجديدة والدعوة لها والعمل من أجلها ، أى مرحلة الإيمان ..

ـــ لعلك تلاحظ أن الإيمان ، أى قوة الإصرار على العمل ، إذا كانت قد وجدت عند الحيوان والحشرات ، فإن الشك ، أى التفكير فى التغيير ، شيء خاص بالإنسان وحده ، ولذلك لا توجد تغييرات فى حياة الحيوان .. فهو يعيش فى مجتمعات ثابتة جامدة لا تعرف التطور ..

ـــ ولعل من رأيك أيضا أن الحيوانات والحشرات ليست فى حاجة إلى التطور الاجتماعى وإلا كانت قوة الحياة دفعتها إليه .

ـــ فعلا .. وأمامك مجتمع النمل ومملكة النحل .. ما من تغييرات حدثت فيهما منذ الأزل .. ولا أحسبك تتوقع أن تنقلب مملكة النحل إلى جمهورية ومجتمع النمل إلى ملكية ..!

ـــ ربما ليست لديها مشكلات اجتماعية تدعو إلى ذلك ..!

ـــ إن قوة الحياة الكامنة فيها والمغروزة فى تركيبها هى التى تحل لها مشكلاتها .. أما عند الإنسان فإن قوة الحياة تلقى مسؤولية مشكلاته على عضلته الخاصة الجديدة ، التى تسمى العقل الواعى ، وعلى جهاز فكره المتحرك ..

مسؤولية الفكر

— حقا .. إن مسؤولية الفكر الإنسانى جسيمة !

— وحركة هذا الفكر المستمر هى فرصة الإنسان الوحيدة فى الحياة ..

— ولهذا تقاس قيمة الأفراد والشعوب وقوتها ، بمقدار حركة الفكر فيها ..

— هذا صحيح .. ولهذا تختفى حضارات وتظهر حضارات ، تبعا لجمود الفكر أو تحركه ..

— تقول تختفى ؟.. أين تختفى ؟..

— أقصد تبتلع .. لا شىء يختفى نهائيا أو يزول .. ولكن كل شىء ، ومنها الحضارات إذا ضعفت وجمدت ابتلعتها حضارة أسرع حركة وأقوى معدة ، فتهضم ما عندها من كنوز ، ولا تبقيها إلا نفاية وتتقدم هى متوردة سمينة مزدهرة لتحمل عنها مشعل القوة الإنسانية ..

— أليست كل حركة مقترنة بالاتجاه ؟.. فما هو الاتجاه المطلوب لحركة التفكير ؟

ـــ الاتجاه إلى الأمام طبعا .. أى التقدم بالإنسان فى طريق التطور إلى الأقوى والأفضل .. لأن الاتجاه إلى الخلف هو رجعة إلى موضع سابق مر به الإنسان وتركه ، سائرا مع الزمن المتغير والعصور المتلاحقة .. ولا يمكن للغد أن يصبح الأمس ، إلا إذا انقلبت دورة القمر من حولى ودورتى أنا أيضا ..

ـــ ألا يمكن أن يكون فى ماضى الإنسان شىء ذو قيمة يرى من الأفضل له استعادته ..؟

ـــ هذا شىء آخر .. هناك فرق بين الإنسان الراكب فى قطار الزمن والعصر ، ويريد أن يرجع بقطاره كله إلى محطة سابقة يمكث فيها ، وبين الإنسان الذى يستعيد من هذه المحطة الشىء ذا القيمة وينفض عنه ترابه ويصلحه وينتفع به وهو سائر بقطار الزمن والعصر فى اتجاه المحطات التالية المتقدمة ..

ـــ ما دمت قد ذكرت القطار ، فإلى أى مدى يستطيع أن يسير إلى الأمام ؟

ـــ لا أدرى .. كل ما أعرف هو أنه سيظل يسير ويتحرك بحركة الفكر الخلاق ، هذا الوقود الضرورى لتشغيل عجلاته .. فإذا نفد هذا الوقود وقف ..

ـــ إنها لكارثة هذا الوقوف ..!

ـــ ما دام هناك وقود يدفع العجلات ، فلا خوف .

ـــ وكيف نأتى بهذا الوقود .؟!

ـــ إنه ينبت فى البيئة الصالحة والمناخ الملائم ..

ـــ مثل كل نبات طيب .

ـــ نعم .. بالضبط .. ومثل كل نبات طيب يحتاج فى نموه وازدهاره إلى الهواء الطلق ، وإلى ضوء الشمس ..

الهواء والنور

ـــ وهل هو ينبت من تلقاء نفسه ، أو يزرع زرعا ؟

ـــ قد ينبت من تلقاء نفسه إذا ترك حرا .. ويزرع زرعا إذا وجد من يزرعه ، ويأتى له بخير البذور ويسمده بخير السماد ، ويراعيه ويسخو عليه فى الإنفاق .. وأهم من كل ذلك أن لا يسد عليه منفذ الهواء والنور ..

ـــ البذور والهواء والنور ؟!... أتظن هذه أشيئا من السهل توفرها فى كل حين ؟!

ـــ ولم لا ؟

ـــ هناك ظروف وموانع تمنع ..

ــ تمنع ماذا ؟!

ــ الهواء والنور ؟!

ــ وما هى هذه الموانع ؟

ــ أولا ..

ــ نعم .. أولا ..؟

ــ لا .. لا داعى ..

ــ تكلم ..

ــ كفاية .. أظن أنك تعبت من طول الحديث .. والوقت متأخر .. ويحسن أن تسمح لى بالانصراف ..

على كل حال لقد سعدت بمعرفتك ..

ــ بمعرفة برغوث على سطحك ..!

ــ أوَلا يسعدك أنت أيضا الحديث مع برغوث على جسمك ؟!

ــ وأى سعادة !.. لو وجدت البرغوث الذى يحدثنى عن همومه ومشكلاته بلغة أفهمها ، لقدمت له دمى وأنا مغتبط راضى النفس ..

ــ أنا أيضا أقدم لكم ، عن غير معرفة شخصية ، دمى وكنوزى من بترول وذهب وماس وثمار .. ولا أسألكم شيئا غير توزيعها بينكم

بالعدل ، بلا ظلم ولا طغيان ولا عدوان !.

— شكرا على هذا الحديث .. وأملى أن أحضر هنا مرة أخرى ، وأحظى بسماع صوتك ، والانتفاع بآرائك ..

— إنى فى انتظارك دائما ..

— إلى اللقاء إذن .

ما هى الحقيقة ؟

لم يكن فى نيتى أن أعود سريعا إلى مغارة المقطم لأحادث مرة أخرى ذلك الصوت المنبعث من أعماق الأرض أو من أعماقى،ولكن حدث ما دفعنى إلى الإسراع بالعودة إلى هناك .. فقد شاءت الظروف أن ألتقى بزميل قديم ، كان يعمل مساعدا لى فى أيام اشتغالى بالقضاء منذ أكثر من أربعين عاما .. كان شابا على خلق قويم ، نقى الضمير يقدس الواجب ولا يتهاون فيه ، وكنا نثق فيه كل الثقة ، ونعتمد عليه كل الاعتماد . ما من قضية تناولها بالتحقيق إلا وغاص فى أغوار أسرارها ، لا يستريح له بال حتى يكشف عن حقيقتها .. كنا نجد فيه المحقق المثالى .. وجاءنا ذات يوم وهو فرح سعيد بعد إجازة قصيرة قضاها فى القاهرة . فلقد كنا نعمل فى إقليم من أقاليم الريف . قال لنا إنه موشك على الزواج . فقد خطبت له أسرته فتاة جميلة مهذبة من أسرة طيبة تعرفها والدته . فاغتبطنا له . وصرنا نشجعه على أن يذهب إلى القاهرة كل أسبوع ، ونتنزل له عن بعض حقنا فى الإجازات وهو يتعفف ويرفض ويصر على القيام بواجبه كاملا وعدم ترك عمله

إلا فى إجازته المستحقة وكنا نستحثه على الحديث عن خطيبته فكان يجيب بالكلام اللائق المناسب ولا يزيد . وعرفنا أنه يراها الرؤية المسموح بها فى ذلك الوقت ، وفى حضور محرم . ولم يخرج بها قط لنزهة لا بمفردهما ولا بمصاحبة أحد من أهلها .. واقترب موعد الزفاف فقال أحد الزملاء الماجنين إنه يخشى عليه من عواقب تلك الليلة .. فهو شاب مهذب وعروسه فتاة مهذبة .. وهذا التهذيب كله لا بد أن يذوب دفعة واحدة فى هذه الليلة الخطيرة : ليلة الدخلة .. فماذا هو فاعل ؟.. وهو فيما يبدو لم يمارس قط تجربة تدعو إلى الاطمئنان . واقترح عليه هذا الزميل الماجن أن يذهب به إلى مكان سرى يلتقى فيه بامرأة من النساء العابرات المترددات على تلك الأمكنة لمثل هذه الأغراض . فاستنكر الشاب المهذب هذا الاقتراح . ولكن الزميل المجرب ظل به يقنعه ويزين له فوائد هذه التجربة البسيطة فى هذا الظرف الدقيق من حياته ، ويؤكد له أنه لن يخسر شيئا بهذه الزيارة القصيرة ، فالمكان مأمون ، ولن يكون فيه غيرهما وغير امرأتين يستجلبان خصيصا لهذا الموعد ، حسب التدبير الذى سيتولاه بنفسه مع صاحبة المكان . وهى خياطة رومية أعدت شقة مجاورة لعملها تباشر فيها المواعيد مع زبائن محدودين فى إطار الحفظ والصون . واستجاب الشاب أخيرا . وذهب مع الزميل المجرب إلى شقة

الخياطة . ودخل إلى قاعة جانبية فيها فراش وثير ، وعلى نوافذها ستائر مسدولة من المخمل الأحمر السميك ، وعلى أريكة فى الصدر جلست امرأة عارية الكتفين ما كاد يراها حتى صعق : إنها خطيبته المهذبة !. وخرج هائما على وجهه فى الطرقات ، يكاد من هول الصدمة أن تدوسه العربات ولم يتزوج بعدها أبدا.. ولم نره نحن بعد ذلك أبدا.. فقد طلب نقله إلى أقصى الصعيد ، ولم ألتق به إلا أخيرًا ، وقد شاخ وتقاعد بعد حياة طويلة فى وظائف القضاء .. اعترضنى وأنا سائر فى الطريق كما أفعل كل صباح ، وحيانى وذكرنى بنفسه ثم استأذن بأسلوبه المهذب الذى عرفناه منه قديما فى أن يلقى على سؤالا ..

قلت له :

ـــ تفضل .. ما هو السؤال ؟

قال :

ـــ ما هى الحقيقة ؟

دهشت لسؤاله ولم أتوقعه .. ولاحظ دهشتى ، ولعله لاحظ أيضا شيئا من التبرم الخفى ، فمثل هذه الأسئلة المطلقة فى موضوعات فكرية مجردة ليس مما يغرى بالحديث إلا فى نطاق المحاورات والمناقشات داخل جلسات الأدب والفكر ، وليس مما يتحدث به فى مقابلة عابرة فى الشوارع والطرقات . وأدرك هو ذلك فبادر يقول :

ـــ أتسمح لى أن أقص عليك الدافع إلى هذا السؤال ..؟

قلت :

ـــ بالطبع .. لا بد أن يكون له من دافع ..

قال :

ـــ إنها قصة قديمة .. أو على الأصح هو سر لم أبح به لأحد منذ نحو ثلث قرن . وهو يثقل صدرى . وعلى مدى هذه الأعوام الطويلة وأنا أعيش مع هذا السر الدفين ، وليس فى المقدور أن أفعل معه شيئا سوى أن أردد دائما بين جدران نفسى هذه العبارة : ما هى الحقيقة ؟.. ما هى الحقيقة ؟.. هل يتسع صبرك ووقتك لسماع سرى ؟!

واشتقت إلى معرفة هذا السر الذى عاش معه هذه الأعوام الطويلة ولم أطق صبرا على تأجيل الحديث حتى نتخذ لنا مجلسا .. وكنا نمشى على كورنيش النيل .. فأخذت أتمهل فى المسير معه حينا وأتوقف به فى السير حينا ، وقد دعوته إلى الكلام فروى لى هذه القصة العجيبة : إنه فى ذات يوم منذ نحو ثلاثين عاما وكان قد نقل إلى القاهرة وكيلا للنيابة فيها ، توفيت والدته ولم يكن يقطن معها .. كانت تعيش فى بيتها .. بيت الأسرة الكبيرة مع زوجها الأخير . فوالده كان قد توفى منذ وقت مبكر .. وهو طالب فى الحقوق .. وقبل أن يلتحق بالوظيفة .. أى قبل أن أعرفه مساعدا لى .. فى ذلك الوقت كانت والدته قد تزوجت

بعد أبيه .. فهى لم تترمل إلا لمدة عام واحد .. ولبثت مع زوجها الثانى خمسة أعوام .. كان من أعيان الريف الموسرين ، رجلا قويا مهيبا .. ولكنه أصيب فى آخر الأمر بمرض عضال ، فلم تطق صبرا على تمريضه طويلا ، فتغيرت نحوه ، وانتهى بها الحال إلى أن طلبت منه الطلاق فطلقها . وأبرئ من مرضه بعد ذلك ، ولكنها لم تعد إليه ، وعاشت مع ابنها فى بيت الأسرة ، وكانت أعماله تقتضى أن يتردد عليه فى البيت كاتب التحقيق يحمل إليه ملفات القضايا ، وكان شابا وسيما متأنقا لبق الحديث ، مما يطلق عليهم بين عامة الناس وصف « الداير الملحلح » .. فما يشعر الابن ذات يوم إلا وقد اتفقت أمه مع كاتب تحقيقه على الزواج ، ولما ناقشها الابن فى مظهر هذا الزواج وبين لها ما فيه من عدم لياقة ، فزواجها من مرؤوسه الذى يعمل تحت سلطته فيه إحراج له . كما أن فارق السن بينهما كبير . فهو يكاد يماثل ابنها سنا إن لم يكن أصغر . فلم تستمع إلى هذه الاعتبارات ، وأصرت على هذا الزواج ، وقامت بإتمامه فعلا و لم يجد الابن أمامه إلا أن يترك هذا البيت ويقيم بمفرده فى بنسيون . ولو كان أخوه الأكبر فى القاهرة لأقام معه . ولكن الأخ الأكبر الوحيد الذى له ، كان طبيبا مستقرا فى أسيوط تزوج هناك منذ كان مفتشا للصحة فى مركز من مراكز الريف فى الصعيد . وخرج من خدمة الحكومة وأنشأ عيادة خاصة وأنجب

أطفالا أدخلهم مدارس تلك المدينة ، و لم تعد له بالقاهرة صلة تذكر ، و لم يكن يرى أخاه هذا وأسرته إلا فى الأعياد والإجازات . أما والدته فكان يتصل بها عن طريق التليفون . وفى أحيان كثيرة كانت تزوره هى فى البنسيون ، تحاشيا من اللقاء فى البيت . أما زوجها الشاب فلم يره منذ عقد القران . فقد طلب نقله إلى نيابة أخرى وفهم رئيسه النائب العام ظرفه الخاص هذا ، وحرجه مع كاتب نيابته فتقله فى دائرة القاهرة نفسها ولكن فى حى بعيد عن عمل زوج أمه ، و لم يدخل بيتها إلا يوم وفاتها .. تلقى الخبر بالتليفون من زوجها فذهب على الفور إلى ذلك البيت ، بيت الأسرة الذى نشأ فيه صغيرا هو وأخوه الأكبر ، فى كنف والد كثير الأسفار يعمل فى المقاولات ، ووالدة متبرمة على الدوام بغيابه . فاعتاد هو وأخوه على أن يعتمد كل منهما على نفسه .. لم يجد فى ذلك البيت شيئا تغير ، إلا بعض ملابس ذلك الزوج الثالث معلقة على شماعة فى حجرة النوم .. ولمح فوق السرير جثمان والدته وقد غطى بملاءة بيضاء .. وسأل عن أخيه الأكبر ، فقيل له إنه قد أرسلت إليه برقية فى أسيوط . و لم يلبث أن وجد البيت قد امتلأ بنساء لا يدرى من أين جئن ، وبين وقت آخر ينطلق صوت عويل حاد ، ثم صوت ندابة يتبعه صوات متقطع لمجموعة كأنها بطانة ندب محترقة .. أما الزوج فكان يسير هنا وهناك

والدموع تجرى على خديه ، منديله فى يده يجفف به العبرات مع الزفرات ، وعجائز النسوة من حوله يقلن له : « شد حيلك يا بنى » .. أما ابن المتوفاة فكان كالغريب فى ذلك المكان .. فقد كان مسيطرا على مشاعره غير مستطيع أن يكيف وضعه ، وبدا كأنه فى حاجة إلى وجود أخيه ليعيد إليه الإحساس بكيان الأسرة . ولم يلبث الأخ الأكبر أن وصل ، وجعل يسأل أسئلة سريعة متلاحقة عن وقت الوفاة وموعد الجنازة ونشر النعى ومكان تقبل العزاء ومدفن الأسرة ونحو ذلك من الإجراءات . وكان الزوج يجيب على ذلك كله وهو يشهق بالبكاء قائلا : إن كل ذلك قد تم إنجازه ، ما عدا النشر فى الصحف ، فإنه انتظرهما لبيان أسماء الأسرة كاملة ، وجعل الابن الأكبر يملى عليه ، ويتبادلان الرأى فى كل شىء ، دون أن يبدو عليهما أى حرج ، كذلك الحرج القائم بين وكيل النيابة وكاتبه .. وقد أراح ذلك الابن الأصغر ، فترك كل شىء لأخيه الطبيب .. وتمت الترتيبات بسرعة ، ونصب الصوان أمام البيت ، وظهر النعى فى الصحف وأقبل المعزون واصطفوا فى الكراسى ، ودار الفراشون بالقهوة السادة ، وجعل الحانوتية يعدون الخشية ، بينما الجثمان المسجى على الفراش لم يزل مغطى بالملاءة البيضاء ، فى انتظار نقله للغسل : وجاء من النسوة من يسأل الأخوين إذا كانا يريدان إلقاء نظرة على

أمهما .. فأقبل الابن الأكبر الطبيب ورفع الغطاء عن الجثمان بتؤدة ونظر فى وجه والدته ثم عاود النظر فى اقتراب مدققا فاحصا ، وأخيرا أعاد الغطاء إلى أصله ، ورجع مطرقا وأمسك بيد أخيه وكيل النيابة ، وانتحى به جانبا وأسر فى أذنه :

ـــ أمنا ماتت مقتولة ..!

ـــ مقتولة ؟!

لفظها وكيل النيابة فى همسة مرتاعة ..

وأردف أخوه الطبيب قائلا :

ـــ مخنوقة .

ـــ مخنوقة ؟!.. أنت متأكد ؟!

ـــ طبعا .. أنت نسيت أنى كنت مفتش صحة .. من اختصاصى فحص الجثث .. حتى قبل نظام الطب الشرعى ..!

ـــ والعمل ؟!

ـــ والله .. شىء يحير ..

ـــ نبلغ ..

ـــ معنى التبليغ أولا تشريح الجثة .. وثانيا التحقيق .. والتحقيق ربما جر للفضيحة ..

ـــ الفضيحة ؟!

ــ أمنا كانت مزواجة بشكل ربما يكون محل ..
وخصوصا زواجها الأخير ..

ــ فعلا زواجها الأخير ..!

ــ لكن .. القاتل ؟!

ــ يحسن أن نكتم هذا الموضوع ، وندفن الجثة وقاتلها معها ، صيانة لسمعة أمنا وسمعة الأسرة،والله يرحمها ويغفر لها ويطهر روحها..

واتفق الأخوان على كتمان السر ، وعدم إثارة هـذا الموضوع لا من بعيد ولا من قريب .. وذهب كل منهما فى طريقه وانصرفا إلى شؤون حياتهما ، ونسيا الموضوع أو تناسياه .. على أن الأخ الأصغر وكيل النيابة لم يكف لحظة عن التفكير بينه وبين نفسه فى هذا الأمر : من الذى خنقها ؟.. ولماذا ؟.. وجعل طوال الأعوام يدير التحقيق داخل فكره ، ويستعرض من تحوم حوله الشبهات .. أتراه ذلك الزوج الأخير ؟.. فعل ذلك بدافع الطمع فى ميراثها ؟.. ولكن ميراثها لم يكن بذى بال ، فقد كانت مسرفة متلافة وإذا كان قد بقى لها القليل الذى تورثه ، فقد زهد الزوج فيه ، وأقبل على الأخوين الوارثين عند توزيع التركة وفى عينيه أسى ، وفى صوته تهدج يعلن إليهما أنه نزل لهما عن نصيبه ، ولن يسمح لنفسه وهو الدخيل أن يرث شيئا من تركة أمهما ، وكان موقفا كريما فى نظر الأخ الطبيب .. ثم

ما هى مصلحته فى قتلها وقد كانت تغدق عليه من مالها إغداقا وتؤويه فى بيتها ، وكان هو الآمر الناهى فى البيت يتصرف فى كل ما لديها التصرف المطلق .. أتراه قد مل عشرة هذه العجوز وأراد التخلص منها ؟ ولكن هذا ليس الحل .. فباب الطلاق مفتوح .. أو الهرب .. أو طلب النقل إلى وظيفة فى أقصى البلاد .. وتعب من هذا التحقيق وبدأ يسأل نفسه عن جدواه .. وافترض أنه اهتدى إلى القاتل ، فهل يسلمه إلى العدالة ؟.. لا بالطبع .. فقد انتهى الرأى من سنوات إلى كتمان هذه الجريمة تلافيا للفضيحة ، وصيانة للسمعة .. إذن وعلى فرض أنه عرف القاتل هل يتولى هو بنفسه عقابه سرا بغير ضجة ؟!.. هذا أيضا لا يمكن أن يخطر بباله .. فهو من رجال القضاء ، وعلى قدر كبير من الثقافة والتهذيب والتحضير ، كيف يتصرف تصرف الجهلاء الذين يسلكون طريق الأخذ بالثأر فى المجتمعات البدائية ؟.. وهو الذى من عمله وواجبه أن يفهم الناس احترام القانون !.. ثم هناك أكثر من ذلك : هناك شعوره الداخلى الذى لا يحمل ضغنا ولا حقدا على القاتل ، لأن الجريمة أصبحت قديمة . وبردت العواطف ، ولا بد أن لسلوك أمهما الشخصى نصيبا فيما حدث . وهو لا ينسى لها أنها أوقعته فيما مضى بسوء اختيارها فى تلك العروس التى ضبطها فى المكان المشبوه .. ثم شىء آخر الآن هو أن الجريمة

نفسها لم يعد لها وجود فى نظر القانون ، بعد أن مضى عليها نحو ثلاثين عاما . ومن يدريه أن القاتل نفسه حى .. لعله أصبح هو الآخر من الأموات ، وأنه مدفون الساعة فى مقبرة ، ويزورها أهله وذووه ويترحمون عليه وينثرون الزهور .. ما معنى إذن هذا التفكير المستمر ، وهذا التشوق الدائم إلى كشف السر ؟.. إنه لا يتصور أن يموت ذات يوم دون أن يعرف حقيقة هذا الأمر.. لماذا؟.. لماذا يريد ذلك وهو يوقن أنه لن يجنى شيئا من ورائه ؟!.. أترى معرفة الحقيقة ضرورة فى ذاتها ؟.. لكن ما هى الحقيقة ؟!

وعندما انتهى زميلى القديم من قصته إلى هذا السؤال ، كنت أنا قد بدأت التفكير معه والبحث عن الجواب .. ولكن التسرع والإسراع بأى إجابة ليس مما ينبغى ، وخاصة فى أمر كهذا ، ومع رجل كهذا .. واستمهلته ورجوته أن يمر على فى مكتبى بعد أيام .. وانصرفنا .. وخلوت إلى نفسى .. وعندئذ تذكرت مغارة المقطم ، وقلت لعل حديثى مع ذلك الصوت المنبعث هناك ، صوت الكوكب ومحاورتى معه مما قد ينير لنا السبيل ..

ما هى الحقيقة ؟

دخلت المغارة .. واتجهت قدما إلى وسطها ، حيث الئر العميقة ، وملت برأسى أطل وأصيح :

ــ ها أنا ذا قد جئت ...

ــ أهلا وسهلا .. كنت أتوقع عودتك !

قالها الصوت بنبرته التى عرفتها ..

وسألته فى شيء من الدهشة :

ــ كنت تتوقع عودتى ؟!

ــ طبعا .. من حديثنا السابق أدركت أن مشكلاتكم لن تنتهى ..!

ــ هذا صحيح .. ما دمنا ذلك النوع العجيب المسمى الإنسان .. فنحن نفرز مشكلاتنا كما تفرز العقارب سمومها ..

ــ ولماذا العقارب ؟!

ــ لأن العقرب تؤذى نفسها أحيانا بالسم الذى تفرزه ..

ــ نعم .. ولكن العقرب تولد وسمها فيها .. أما أنت أيها الإنسان فتولد نقيا صافيا ، ثم تصنع أنت بيدك سمومك، ثم تعيش حياتك تبحث

عن الترياق ..!

ــ حقا .. وهذه مصيبتنا .

ــ ما هى مشكلتك اليوم ؟

ــ أريد أن أطرح عليك سؤالا ..

ــ تفضل ..!

ــ ما هى الحقيقة ؟

ــ أى حقيقة ؟.. حقيقة ماذا ..؟

ــ الحقيقة .. ألا تعرف كلمة الحقيقة ..؟

ــ حدد معنى الكلمة .. أكثر الضلال يأتى عندكم من إطلاق كلمات كبيرة فى الهواء ، فارغة من المعانى المحددة .. إن الحيوان مشكلاته أقل تعقيدا ، لأن لغته أكثر تحديدا .. إنه يحدد طلباته ، ويحدد قدراته .. يلائم بين الطلبات والقدرات .. ولا يطلب القفز أكثر مما تستطيع عضلاته .. تلك هى لغته .. كل شىء عنده محكوم بقانون السليقة مدروس بدقة الغريزة .. لا لغو فيها ولا هزل .. قفزته محسوبة وقلما تخطئ .. ألم تنظر إلى قط وهو يريد القفز من حائط إلى حائط .. إنه يدرس المسافة بينهما بعناية تامة ، وكأنه يقيس قدرته قبل أن يهم بالقفز . ولا يقدم إلا وهو على ثقة من أنه سينجح .. وهو قلما يخطئ أو تزل قدمه عنده بعد حاسة الحساب ..

ـــ الواقع أنى لاحظت ذلك فى القطط ..

ـــ ليس فى القطط فقط .. فى كل أنواع الحيوان والحشرات هذا التحديد الدقيق للقدرة والرغبة .. وهو ما أسميه اللغة المحددة .

ـــ ولماذا لا نملك نحن مثل هذه اللغة ؟

ـــ لأنكم تصنعون لغتكم بأنفسكم من كلمات .. وهذه الكلمات مختلفة الدلالات والمدلولات .. وكل نوع من الناس يستعملها استعمالا مختلفا .. هل تعرف مثلا معنى كلمة الخير وكلمة الشر ..؟

ـــ الخير والشر ؟.. طبعا هذا شيء معروف ..

ـــ لا .. ليس معروفا بمعنى واحد .. إنه عند الفلاسفة بمعنى ، وعند الأخلاقيين بمعنى ، وعند الشعراء بمعنى .. وهلم جرا ..

ـــ كيف ذلك ؟.. إن الخير والشر هما الخير والشر ..

ـــ أنت إذن لم تقرأ فيلسوفكم ابن سينا .

ـــ وهل قرأته أنت ..؟

ـــ بالطبع .. لا بد أن أعرفه ما دمت قد عرفتك وعرفت صنف الموضوعات التى تحادثنى فيها .. وأنت ألا تفعل ذلك لو جاء برغوث على جسمك يحادثك فى موضوعات فكرية ؟.. ألا تحاول أن تعرف شيئا عن فلاسفة البراغيث ..؟

ـــ فلاسفة البراغيث ؟!

ـــ مثلا .. مثلا ..

ـــ ما علينا .. ماذا كنت تريد أن تقول عن فيلسوفنا ابن سينا ..؟

ـــ أردت أن أقول إنه يتحدث عن الخير والشر فى الإلهيات ، فتتخذ عنده كلمة الخير وكلمة الشر معانى وأبعاداليست مما يطلق فى المجال العام ولا مما يستعمل فى الأخلاقيات أو المعاملات بين الناس ... وانظر إليه فى كتابه « الشفاء » ، حيث يقول : « فالخير بالجملة هو ما يتشوقه كل شىء فى حده ويتم به وجوده ، والشر لا ذات له ، بل هو إما عدم صلاح لحال الجوهر .. فالوجود خيرية . وكمال الوجود خيرية الوجود .. فإذن ليس الخير المحض إلا الواجب بذاته ..»...

ـــ وما هو الضرر فى أن تستعمل نفس الكلمات فيما هو أعلى ، وفيما هو عام .. ما دام للإنسان ميزة الحياة فى عالمين ، عالم السمو فى الإلهيات ، وعالم الواقع فى المعاملات ..؟

ـــ لا ضرر .. ولكن على الإنسان أن يحدد المعنى عندما يستعمل الكلمات ، وأن يتذكر دائما أن إطلاق الكلمات بغير تحديد هو الذى يؤدى إلى سوء الفهم بين الناس ، وعندئذ لا يستطيع الناس أن يتفقوا على رأى ، ما دامت لغة الكلمات بينهم قد اختلفت معانيها

ومدلولاتها ..

ـــ فلنعد إلى معنى الحقيقة ، حتى أستطع أن أجيب ذلك الذى سألنى عنها .. ويظهر من كلامك أن الصعوبة هى فى تحديد مدلول الكلمة ..

ـــ فعلا.. الصعوبة هى فى اعتباركم الكلمة الواحدة مثل الجوهر الفرد .. ولقد كنتم تعتقدون أن الذرة هى الجوهر الفرد ، فإذا هى قابلة للتفتيت .. وعندما فتتت الذرة كشفت عن عوالم خفية أثارت دهشتكم .. كذلكَ الكلمة الواحدة قابلة للتفتيت والانقسام ، وعندئذ تكشِف عن مدلولات بعيدة الأثر ...

ـــ تقصد أن الحقيقة قابلة للتفتيت والانقسام ؟

ـــ بدون شك .

ـــ مثل الذرة إذن ..؟

ـــ نعم .. والظاهر أن كل شىء فى الوجود ينبع من نفس القانون .. التركيب هو نفس التركيب .

تركيب الحقيقة :

ـــ فلنحاول إذن تفتيت هذا التركيب لما نطلق عليه

« الحقيقة » ..

— فلنتفق أولا على أن المقصود بالحقيقة هى الحقيقة المحددة بعالم الإنسان .. أى الحقيقة فى نظر البشر ، وفى محيط حياتهم وحواسهم وقدرات أفهامهم وعقولهم وأرواحهم ..

— طبعا .. طبعا .. لأن الحقيقة خارج مدارك البشر لا يدركها البشر ..

— عندئذ ستجد أن كلمة الحقيقة ، وكلمة السعادة ، وكلمة الشقاء ، وكل هذه الكلمات الكبيرة التى تطلقها الأفواه وتسطرها الأقلام بغير تحديد إنما هى تركيبات عامة كتركيبات المجموعات الشمسية ، وتركيبات الذرات .. فكلمة الحقيقة — مثلا — هى مجموعة شمسية تحتوى على شمس هى النواة وكواكب تدور حولها ، وهى ذرة تحتوى على نواة وألكترونات تدور حولها .. كذلك تركيب كلمة الحقيقة ، تحتوى على نواة هى روح الحقيقة ، وتدور حولها جملة حقائق مثل : الحقيقة الدينية ، والحقيقة العلمية ، والحقيقة الفنية والأدبية ، والحقيقة السياسية والاقتصادية .. وهكذا ..

— فهمت .. ولذلك لا يمكن أن نستغنى بحقيقة واحدة من هذه الحقائق عن الأخرى ، أو نرى وجودنا من خلال واحدة دون غيرها .. وإلا انطبق علينا المثل المعروف عن أولئك العميان الذين

أرادوا معرفة فيل ضخم ، فوقعت يد أحدهم على ذيله ، فقال لأصحابه إن هذا الفيل هو شيء رفيع قصير ، ووقعت يد الثانى على أذنه ، فقال بل هو شيء كالمروحة ، ولمس الثالث ساقه فأعلن أنه شيء كالعمود .. أما الرابع ، فاصطدم ببطنه وصاح لا ، بل هو كالحائط .. وهلم جرا ..

— و لم يزل أكثر الناس مثل هؤلاء العميان ..؟

— نعم .. مع الأسف ..

— ولذلك كانت كلمة الحقيقة عند أكثر الناس هى أبعد الأشياء عن الحقيقة ..

— هذا صحيح . ولكن هل الحقيقة فى اكتمالها شيء بعيد دائما عن الإنسان ؟ أو أن الإنسان المبصر يستطيع إدراكها كما يستطيع إدراك الفيل بكل حجمه ؟

— وما قولك إذا كانت الحقيقة فى اكتمالها أكبر حجما من الفيل ، والإنسان أصغر حجما من النملة ؟!. فى هذه الحالة لن يستطيع الإنسان أن يدرك سوى جزء ضئيل من قدم الفيل ..

— وماذا تقول فى إدراك الإنسان لمجموعته الشمسية ولمجرته ولمجرات أخرى تبعد عنه ملايين السنين الضوئية ؟

— ومن أدراك أن كل هذا ليس أكثر من ذلك الجزء الضئيل من قدم

الفيل ؟!

ــ إذن فلنحدد الحقيقة بما قلناه من أنها تلك التى يمكن أن تدخل فى إطار المدارك البشرية . وعلينا نحن البشر أن نعمل دائما بكل جهدنا على توسيع هذا الإطار ..

ــ وهذه هى رسالة وجودكم على الأرض .. أى فوق سطحى .

ــ نعم . ولكن توسيع إطار المعرفة لإدراك الحقيقة ليس بالأمر السهل . إنه يقتضى منا كما ذكرنا تفتيت جوهر الحقيقة إلى عناصرها ، ثم استخدام المقياس الخاص بكل عنصر ..

ــ وهذا ما قمتم به فعلا، فالحقيقة العلمية تستخدمون لها مقياس الرؤية التجريبية . والحقيقة الفلسفية مقياس الرؤية الذهنية . والحقيقة الدينية مقياس الرؤية الروحية ، وهكذا .. ولن يعيدكم إلى رؤية العميان للفيل إلا استخدام مقياس واحد لكل هذه الحقائق .. لأن هذه الحقائق مختلفة فى طبيعتها .. فالحقيقة الدينية مثلا كاملة بذاتها لأن العقيدة تولد تامة التكوين ، والإيمان هو الإيمان ، لا يقبل الزيادة أو النقصان . أما الحقيقة العلمية فهى مفتوحة دائما للإضافات الجديدة ، قابلة دائما للتعديل والتبديل والتصحيح والتنقيح . فهى تولد غير مكتملة التكوين وتنمو باستمرار إلى غير حد معروف .

تصادم أجزاء الحقيقة

ــ ألا يمكن أن تتصادم أجزاء الحقيقة فيما بينها ؟..

ــ هذا أمر قليل الاحتمال . إن الكواكب فى المجموعات الشمسية والمجرات والألكترونات كل منها يدور فى فلكه ، ويعمل فى تناسق وتعاون مع غيره ، ولا يصدم به ما دام يتحرك فى نطاق فلكه ، ولا يدخل فى فلك غيره . وهذا هو الجوهر الأصيل فيه . ولكن هناك نوعا طفيليا بطبعه ، يتسلق على الأنواع الأخرى كما يحدث فى عالم النبات ، ويعيش عليها ويمد أطرافه من نوع إلى نوع ويلف سيقانه حول شجرة وشجرة أخرى وهى أيضا مثل المذنبات فى عالم الأجرام .. مثال ذلك بعض أنواع الدراسات والفقهيات التى تنسج نشاطها العقلى حول الحقائق الأصيلة ، وتمعن فى شرحها وتفسيرها ، وتكبلها بحواشيها وذيولها ، إلى أن تصبح هى الأخرى حقيقة مستقلة ، لها مدارها الخاص ، مثل المذنبات ، تمس الكواكب ، وفى فهمها أو زعمها أنها تلقى عليها الضوء من تخريجاتها وتفصيلات بحوثها ، ولكن غبار ذيولها الطويلة يحجب الحقيقة أحيانا ويشوش بساطتها وصفاءها .

ـــ معنى هذا أن الحقيقة يمكن أن تتولد عنها حقيقة أخرى صغيرة تتعلق بها وتدور حولها كما يدور القمر حول الأرض أى حولك ؟!

ـــ هذا أيضا يحدث .

ـــ إذن التصادم بين أجزاء الحقيقة هو أمر خارج عن نظامها الطبيعى . وإذا حدث فإنه يحدث من جزء دخيل ومن حدث خارجى عن جوهرها الأصيل .

ـــ بدون شك .

ـــ وهل يمكن اعتبار هذا الجزء الخارجى مضادا للحقيقة ؟

ـــ إنه ليس كذلك . ولكن يمكن اعتباره شيئا قائما بذاته . له شخصيته . إنه بناء متين التكوين أحيانا ، رائع التركيب ، أصبح هو نفسه حقيقة ، مثل الحقيقة الفنية ، أو الحقيقة الاقتصادية أو السياسية .

ـــ الواقع أننا نرى أحيانا فى شرح بعض الشراح لنص من النصوص مسالك تطول وتتلوى وتتعرج وتتوه بنا عن روح النص الذى بدأت منه ، كما نجد فى نظريات بعض المتفقهين ما لا يمكن الاعتماد عليه كلية فى إدراك الحقيقة ..

ـــ إن الحقيقة أوسع وأعمق وأعظم من شرح الشراح ونقد النقاد وأصحاب الدراسات وواضعى النظريات .

ـــ وما فائدتها إذن ما دمنا لا نستطيع رؤية الحقيقة كاملة من خلال عيونها ونظراتها وحدها ، وهي جميعا متشابكة فيما بينها ومتناقضة في أكثر الأحيان ؟

ـــ إنها كما قلت لك قد استطاعت بالعقول المتوقدة والمهارة الذكية والبراعة الجدلية أن تصبح كيانا منفصلا وبناء مستقلا ولونا من ألوان المعرفة وفرعا من فروع الحقيقة الأصلية ..

ـــ أليس البعد عن الحقيقة هو الكذب ؟

ـــ لا . مطلقا . لا يمكن اعتبار كل بعد عن الحقيقة كذبا . إن كلمة الكذب تحتاج هي الأخرى إلى تحديد دقيق مثل تحديد كلمة الحقيقة .

ـــ ولكننا نعرف لأول وهلة أن الكذب هو ضد الحقيقة . أليس هذا من البديهيات ؟..

الكذب والحقيقة

ـــ لا . ليس كل ما يخالف الحقيقة هو من قبيل الكذب ، قد يكون من قبيل الجهل . والكذب لا يكون عن جهل بالحقيقة ، بل عن علم بها وتعمد إخفائها بإظهار ما يخالفها .

ــ لا بد إذن للكاذب من أن يكون عالما بالحقيقة ويريد إخفاءها ؟.

ــ وحتى هذا لا يكون كافيا لوصف الفعل بالكذب . فهناك من يعرف الحقيقة ويخفيها فى صدره . إنه ليس بالكاذب إلا إذا أعلنها متعمدا بقول أو فعل يخالفها . أى أن يظهر خلاف ما يبطن ، ويقصد إبلاغ الآخرين ما يعرف أنه غير صحيح بدلا من إبلاغهم ما يعرف أنه صحيح .

ــ إذن المعرفة أساس الكذب ؟

ــ بالضبط . لأن الجهل بالحقيقة وإظهار غيرها فى صورة حقيقة لا يسمى بالكذب ، ولكن يسمى بالاختلاف . أى خلق حقيقة وهمية لعدم معرفة الحقيقة الأصلية .

ــ وهل فى هذا ضرر ؟..

ــ الأمر يختلف . هناك نوع من الاختلاق ضار ، عندما يسىء إلى الآخرين ، ويؤذيهم فى مصالحهم ومعاملاتهم . ولكن هناك نوعا من الاختلاق فيه نفع كثير ، وخاصة فى ميدان العلوم والفنون ، فاختلاق أو اختراع فروض وهمية فى العلم وصور وهمية فى الفن هى من الوسائل المشروعة للكشف عن الحقيقة الأصلية..

ــ عجيب أن تكون المعرفة هى أساس الكذب ، وهو ضرر . وأن

يكون الجهل هو أساس الاختراع وهو نفع !..

ــ هذا مظهر من مظاهر عدم التحديد لمعانى الكلمات .. أما العجب فلا عجب . لأن العلم يحدث فيه ذلك . وإذا افترضنا أن المعرفة موجبة والجهل سالب ، فإن الموجب والسالب متعاونان فى إحداث النتائج ..

ــ لكأنك تريد أن تقول إن النفع والضرر متعاونان ؟!

ــ أحيانا . كما يتعاون النور والظلام ..

ــ وهل يمكن أن تتوقع من الكذب غير الظلام ؟!.

ــ ألم تسمع عن الكذب الأبيض والكذب الأسود ؟..

ــ أعرف ذلك . ولكن الاختلاف فى اللون هو اختلاف فى درجة الضرر .

ــ صدقت . والخطورة دائما هى فى خطأ التقدير وسوء المفاجأة . فقد تبدأ الكذبة بيضاء وتنتهى إلى نهاية سوداء .

ــ حقا . هنا الخطورة . وأولئك الذين يلعبون بالكذب وهم يريدون الاعتقاد بأنه أبيض يخدعون الناس ، عندما يفاجأ الجميع بأن الأبيض انقلب إلى أسود !..

ــ لكن ألا يمكن أن يكون الكذب مشروعا فى بعض الأحوال ؟..

ــ لا .. لا يمكن بأى حال أن يكون الكذب مشروعا ، ولكنه

يحدث دائما وعلى من يمارسه أن يتحمل مسؤولية نتائجه ..

ـــ أظنك توافقنى على أن هناك بعض حالات يغتفر فيها كتمان الحقيقة ..

ـــ أعطنى مثلا ..

ـــ هذا الزميل الذى حدثتك عنه ، عندما عرف أن أمه قد خنقت ، وكتم هذه الحقيقة ..

ـــ ألم تخبرنى أيضا أنه تحمل نتائج هذا الكتمان ، وأنه يعانى من القلق طوال الأعوام ؟..

ـــ فعلا .. إنه يعانى .. ويسائل نفسه دائما : ما هى الحقيقة ؟ ولذلك جئت ألقى عليك هذا السؤال ..

ـــ وهل أجبتك ؟

ـــ لست أدرى هل كل هذا الذى تكلمنا فيه كان هو الإجابة عن السؤال ؟!

ـــ إنك لم تحدد لى دافعه إلى هذا السؤال تحديدا كافيا .. أهو دافع شخصى أو دافع عام ؟.

ـــ أظنه الدافع الشخصى ..

ـــ تقصد أن الجريمة التى كتمها هى دافعه إلى السؤال ؟..

ـــ بالطبع .. إن الحقيقة التى ..

ـــ التى خنقها طوال الأعوام ..

ـــ خنقها ؟!.

ـــ نعم . خنقها ولكنها تتكلم .. دائما .. إن الحقيقة المخنوقة لها صوت قوى خفى ..

كلما خنقت تكلمت

ـــ كيف ذلك؟ميتة تستطيع الكلام؟!..ألم تسمع عن المثل الذى يقول : الأموات لا يتكلمون ؟..

ـــ هذا خطأ . إن الأموات يتكلمون أيضا . وخاصة من يموت بالقتل عمدا .. حتى القاتل نفسه يتكلم عن جريمته دون أن يريد أو يشعر .

ـــ ما هى تلك القوة التى تكمن فى « الحقيقة » ؟

ـــ إنها قوة عجيبة فعلا ، مثل قوة الراديوم فى إشعاعه الذى يخترق الجدران السميكة .

ـــ نعم . حتى الشاعر العربى القديم عرف هذه القوة يوم قال :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ـــ إن الصحيح هو الصحيح ، دائما وفى كل زمان ومكان ،

وما يصدق فى العلم يصدق فى الفن ..

ــ حقا . ليس فى مجال الشعر وحده . هناك أسطورة معروفة ، تحكى عن الإسكندر ذى القرنين ، روى عنه أنه كان بغير أذنين ، ويخفى ذلك بغطاء للرأس محكم الإغلاق ، ولا يخلعه أبدا .. ومرض ذات يوم بصداع شديد وجاء بطبيب طلب منه الكشف عن رأسه فرفض الملك . ولما أصر الطبيب وألح حذره الإسكندر وهدده بالموت فورا إذا أفضى لمخلوق بالسر الذى سيطلع عليه ولا يعرفه سواه .. وكشف له عن رأسه وعرف الطبيب السر . وعالجه وانصرف . وظل يحمل هذا السر فى صدره زمنا وهو لا يجرؤ على الإفضاء به خشية عقاب الملك . وناء يحمل هذه الحقيقة المخبوءة وثقل عليه حملها وحده ، وشعر بحاجة ملحة إلى التخفف منها ؛ فذهب إلى بئر منعزلة وأطل على أعماقها هامسا : « الإسكندر ذو القرنين بغير أذنين ! » وسرعان ما ردد الصدى جملته ، وإذا شجرة بقرب البئر ممتدة الجذور إلى مائها قد اهتزت فيها الأغصان تردد هى الأخرى ما ردده الصدى ، ثم قامت الريح تداعب هذه الأغصان فنقلت عنها ما تردده ، وإذا هى الأخرى تصفر هامسة « الإسكندر ذو القرنين بغير أذنين » ، وانتقلت الريح إلى السواقى فأخذت هى أيضا تدور وفى كل دورة يسمع لها أزيز ونواح يقول ويردد : الإسكندر ذو القرنين بغير

أذنين ...

وهكذا انتشرت الحقيقة المكبوتة ..

ــ أرأيت ؟.. حتى الأساطير تشهد بقوة الحقيقة المخنوقة !..

ــ هناك أيضا من الأمثال ما يقول : كل سر جاوز الاثنين شاع !..

ــ الأصح أن يقال : كل سر ولو فى صدر صاحبه يشيع !..

ــ إذن وصلنا إلى سؤال هام : ما هو تعليل ذلك ؟..

ــ تريد تعليلا علميا ؟..

ــ هذا أقرب إلى الموضوعية .

ــ إنه قانون الفعل ورد الفعل .

ــ كل فعل لا بد أن يقابله رد فعل . وفعل الإخفاء يقابله رد فعله وهو الإظهار .

ــ إذن هذا القانون الذى يطبق فى المجال الميكانيكى يمكن أن يطبق فى المجال النفسى ..

ــ بالتأكيد .

ــ وإذا لم يكن هناك إخفاء ولا خنق ولا كتمان ؟..

ــ لن يكون هناك دافع إلى الكشف والإظهار والإعلان .

ــ وهل يمكن القول بأن الصراحة والإعلان فعل هو الآخر يدفع

إلى رد فعل هو الإخفاء والكتمان ؟!.

ـــ لا لأن ما هو طبيعى وعادى لا يعتبر فعلا يدعو إلى رد الفعل . فالعطش مثلا حدث عارض ليس بالعادى ولا الطبيعى للأحياء ولذلك يدعو إلى ارتواء . ولكن حالة الارتواء لا تدعو إلى العطش . لأن الارتواء هو الأصل عند الأحياء . كذلك الصراحة هى الأصل عند الإنسان فلا يمكن أن يكون لها رد فعل وهو الإخفاء .

ـــ الصراحة هى إذن الأصل فى الإنسان ؟

ـــ بالطبع . ولذلك يحرص عليها حرصه على الهواء الطلق ..

ـــ حقا . وإذا حيل بينه وبينها فإنه يشعر بالاختناق ، ويظل يكافح حتى يظفر بها ويمزق ستارها الذى يحجبها . إن من يحجب الحقيقة والصراحة بستار يحرك فى الآخرين الرغبة فى تمزيق هذا الستار ؟!.

ـــ هذا قانون .

ـــ ولكن الطبيعة التى نعيش نحن وتعيش أنت فى كنفها لها أسرار تخفى عنا ..

ـــ لذلك نبتت عندكم من قديم الرغبة فى هتك هذه الأستار والكشف عن هذه الأسرار ..

وهكذا ولد عندكم العلم ..

ـــ إذن نشوء العلم عندنا هو رد فعل لذلك الخفاء المسدول على سر الطبيعة .

ـــ فعلا .

ـــ ولو فرضنا أنه لم يكن هناك سر فى الطبيعة حجبته عن عيوننا ، هل كان يولد ذلك القلق والظمأ إلى المعرفة والسؤال الدائم والطمع فى الجواب الشافى والرغبة الملحة فى كشف الأسرار ؟..

ـــ لا طبعا .

ـــ لماذا إذن تعذبنا الطبيعة بإخفاء أسرارها عنا ؟..

ـــ لأنكم معشر الإنسان قد كتب عليكم الكفاح فى سبيل الحقيقة .

ـــ نحن وحدنا دون بقية الأحياء ؟

ـــ نعم . أنتم وحدكم ..

ـــ أهو عُقاب ؟.!

ـــ وربما تشريف !...

ـــ لا أظن أن الطبيعة تعنى بتشريفنا !..

ـــ صدقت إنها لا تعرف معنى التشريف أو العقاب هذه كلمات فى قاموسكم أنتم .

ـــ ولعلها لا تعرف أيضا معنى لكلمة الحقيقة !..

ـــ بالضبط . لأنها لا تبحث عن شيء ..

ـــ وأسرارها التى تخفيها ؟..

ـــ إنها لا تخفى سرا .. أنتم الذين تطلقون كلمة سر على كل مجهول لكم ، محجوب عن وعيكم ، غير مجيب على أسئلتكم ..

ـــ ولماذا نحن دائما نبحث ودائما نسأل .

ـــ سل نفسك !..

ـــ حقا إن هذا الأمر عجيب . ما إن نولد ونوجد على الأرض حتى ننظر فى المهد حولنا وعيوننا الصغيرة تكاد تسأل عن كل شيء . فإذا صرنا أطفالا واستطعنا الكلام فإن ألسنتنا المتلعثمة تنهال بالأسئلة على ذوينا إلى أن يضيقوا بنا وبثرثرتنا وإلحاحنا ..

ـــ إنها إذن فطرة .. كفطرة القط الصغير عندما يرى فأرا صغيرا .. إنه يجرى خلفه ليصيده ..

ـــ نعم . وربما لا يكون فى حاجة إلى أكله ..

ـــ وربما أيضا لصغره لا تكون له بعد الأسنان والأنياب التى يطبق بها على صيده ..

ـــ ومع ذلك كله يجرى خلف هذا الصيد ؟

ـــ فعلا ... ولا يستطيع أن يمنع نفسه من ذلك ..

ـــ نعم .. نعم .. وأخيرا .. ألا ترى أننا قد بعدنا كثيرا عما جئت

هنا من أجله ، وأخذنا بهم فى كل واد .. حتى وصلنا إلى القطط والفيران .. ماذا عساى أقول لذلك الزميل القديم الذى يعذب نفسه بذلك السؤال .. عن الحقيقة ؟..

— قل له إن الإنسان صياد الحقيقة !..

— ماذا تعنى ؟..

— ألم تفهم ما أعنى ؟..

— أوضح قليلا ..

الإنسان صياد الحقيقة

— إذا كان الإنسان هو القط فإن الحقيقة هى الفأر ..

— تقصد بذلك أنه يجرى دائما خلف الحقيقة ؟..

— بالفطرة كما قلنا .. منذ الصغر .. وقبل أن تنبت له أسنان العقل وأنياب التفكير .

— ما يدهشنى فى أمر الزميل القديم أنه كما قلت لك ، لا ينوى الانتفاع بالحقيقة التى يجرى خلفها . فهو لا يريد عقاب القاتل لو اكتشفه .. لأن الجريمة ذاتها لم يعلن عنها ، وقد سقط كل حق فى إقامة دعوى بشأنها .. ولكنه مع ذلك لا يكف عن السؤال ..

ــ هذا طبيعى . ولا يدعو إلى الدهشة ، إذا تذكرت الأطفال الذين قلت عنهم الآن إنهم لا يكفون عن سؤال ذويهم .. إنهم ولا شك لا ينوون الانتفاع بالحقيقة التى يريدون أن يعرفوها ..

ــ إذن معرفة الحقيقة شىء ، والانتفاع بهذه المعرفة شىء آخر ..

ــ بدون شك .

ــ ولكن العذاب الحقيقى هو فى محاولة معرفتها .. إن الأسئلة التى لا تجد الإجابة عنها تظل هائمة فى النفس كالأرواح المعذبة ..

ــ أو كحال الصياد الذى أفلت منه الصيد !..

ــ إذن لن ينتهى عذاب الزميل القديم إلا إذا عرف من هو قاتل أمه ..

ــ أظن ذلك .

ــ وكيف السبيل الآن لمعرفة هذا القاتل ؟..

ــ لست أدرى.

ــ أليس عندك ما ينير لنا السبيل ؟

ــ لا أظنك تريد أيضا أن تشغلنى ضابط مباحث أو بوليس !..

ــ عفوا .. ليس القصد .. إن ما أريد هو أن أعود إلى زميلى القديم بما يريح باله ويخفف عنه بعض ما هو فيه من حيرة وقلق ..

ــ عندى اقتراح ، ربما بدا مضحكا ولكنه قد يؤدى إلى شىء ..

ـــ ما هو ؟

ـــ فلينشر إعلانا فى الصحف ..

ـــ إعلان فى الصحف ؟!.

ـــ فى باب الإعلانات المبوبة .. عن القاتل أو من يعرف شيئا عن جريمة الخنق لسيدة فى تاريخ كذا وشارع كذا ... أن يقدم نفسه وله مكافأة مجزية ..

ـــ أتمزح ؟..

ـــ بل أقول الجد .. إن القاتل يعلم أنه لم يعد هناك من حرج أو ضرر فى الظهور ، وربما أغرته المكافأة السخية أو الفضول أو الرغبة فى الاعتراف أو التوبة و الندم أو غير ذلك من الدوافع النفسية الخفية التى تلازم أحيانا مرتكبى الجرائم .. من يدرى ؟.

ـــ هذه أول مرة ولا شك ينشر فيها شىء مثل هذا فى باب الإعلانات المبوبة !

ـــ وما المانع ؟! فليكن من قبيل التجديد !. أتظل هذه الإعلانات مقصورة على طلبات الوظائف ، وبيع السيارات ، وتأجير الشقق المفروشة ، وشراء أفران البوتاجاز والغسالات الكهربائية والحاسبات الألكترونية ..

ـــ وكذلك توريد المجرمين فى الحوادث الجنائية !!!

ـــ ولم لا ؟!

ـــ على كل حال سأعرض عليه الفكرة ، وارجو أن يتقبلها بروح طيبة ولا يرى فيها مدعاة للسخرية ..

ـــ سخرية !.. إن الحقيقة نفسها فى بعض الأزمنة والأمكنة ليست سوى ضحكة سخرية ، ولو كشف عن وجهها لظهر ملطخا بالأصباغ ، كوجه مهرج السيرك ، ولبادرتكم بإخراج اللسان وتلعيب الحواجب .

ـــ إذا كانت الحقيقة تسخر منا وتخرج لنا لسانها وتلعب حواجبها فنحن أيضا نخرج لها عقولنا ونلعب تفكيرنا !..

ـــ لا بأس بهذه الألعاب تشغلون بها وقتكم على الأرض ، أى على سطحى !..

ـــ مهما يكن من أمر فهذه هى الحقيقة !..

ـــ اذهب بها إذن إلى زميلك القديم .

ـــ بماذا أذهب إليه ؟ وبماذا أجيبه عن سؤاله ؟.

ـــ وهذا الحديث كله الذى تحدثنا به عن الحقيقة ماذا كان ؟.

ـــ الحديث عن الحقيقة ماء فى غربال ورمال بين أصابع !..

ـــ لا بد مع ذلك أن تكون قد علقت بيدك قطرة ماء وحبه رمل.. شىء خير من لا شىء ..

ـــ صدقت . وإلى اللقاء وشكرا لك !.

ـــ مع السلامة . وأنا دائما فى انتظارك وخدمتك ...

ما هى القوة ؟

مضت أيام دون أن أرى ذلك الزميل القديم . وكنت أتوقع زيارته بين حين وحين حسب الاتفاق . وبالفعل لم ألبث أن رأيته يدخل على فى مكتبى ذات يوم ، وفى يده مظروف عليه آثار ختم بالشمع الأحمر ، كأنه تقرير من تقارير النيابة العمومية التى كنا نعمل فيها ، وقدم إلى هذا المظروف وكان مفتوحا .

وهو يقول : « أخيرا اتضحت الحقيقة » ومددت يدى وتناولت المظروف وهممت باستخراج ما فيه ، ولكنه بادرنى قائلا : « سأتركه معك تقرأ ما فيه على مهل ، وأعود إليك بعد أيام » . وودعنى وانصرف . وما كدت أخلو إلى نفسى حتى أسرعت إلى المظروف .. استلفت نظرى العنوان قبل كل شىء . إنه موجه إلى زميلى القديم ، المستشار المتقاعد الآن ، باسمه وصفته ، ثم بعد ذلك عبارة وضع تحتها خط أحمر مزدوج للتأكيد . هى : « يسلم إليه بعد وفاتى »... وفى الحال استخرجت المحتوى . إنها رسالة طويلة نصها الآتى :

« سيدى المستشار — لم أشأ أن يطوينى الموت ويطوى معى صفحة من حياتى يجب أن تطلع عليها . ولا أقصد من ذلك دفاعا عن نفسى . فما فائدة الدفاع وأنا راقد الآن فى قبرى .

ربما كان الأفضل لى أن أذهب فى صمت ، وأن أدع جثمانى يوضع مع سرى فى كفن واحد . ولكن لست أدرى أى دافع يدفعنى إلى كشف حقيقة كتمتها فى صدرى أعواما طويلة ؟. لن أجنى من ذلك فى أغلب الظن إلا لعناتك . ومع ذلك لا بد لى من أن أطلعك عليها . وأنت بالذات . لأنك ولا شك كنت تفكر طيلة تلك الاعوام فيمن يمكن أن يكون قاتل والدتك . أما كونها قتلت و لم تمت موتا طبيعيا ، فهذا ما لم يكن من الممكن أن يخفى عليك وأنت فى ذلك الوقت وكيل نيابة وأخوك طبيب صحة سابق ، وقد لمحت عن بعد طريقة نظرته الفاحصة إلى وجه المتوفاة وهى ممددة على فراش الموت، ثم تهامسه معك عقب ذلك ، أدركت فى تلك اللحظة أنكما قد كشفتما الأمر . وأدهشنى قليلا عندئذ أن الأمور قد سارت فى مجراها العادى ، كما لو كانت الوفاة عادية . تنفست الصعداء . وقلت فى نفسى إنكما تصرفتما بمنتهى العقل والحكمة ، ولو فعلتما غير ذلك ووجدت أن أصبع الاتهام تتجه نحوى لتدفقت بكلام جهزته لمثل ذلك الموقف ، فيه بالطبع إساءة لك وخدش جارح للمرحومة . ولكن الله سلم . وأنا

أكن لك دائما الاحترام والتقدير ، وربما الحسد لما تتمتع به من مزايا حرمنى القدر منها . فأنا منذ كنت مرؤوسا لك كنت أتطلع إلى كفاءتك وإلى امتيازك وإلى أحاديث الثناء عليك فأشعر بضآلتى وتفاهة قدرى إلى جانبك . فأنت فى علو دائما وأنا فى سفل دائما . فأنا لم أحصل على مثل شهادتك العالية التى تمنحك الحق فى الترقية إلى المناصب العليا . ولن يكون لى الحق أبدا حتى فى شرف الجلوس معك فى مجلس أصدقائك وزملائك . فأنتم من طينة أخرى . هذا الشعور بالمهانة والضعف هو الذى جعلنى أستجيب إلى نظرات والدتك يوم كنت أدخل بيتك حاملا بعض ملفات القضايا . قالت لى فى أول مرة « اسم الله على شبابك طبعا لك زوجة وأولاد » . فلما أجبتها بالنفى وأنى أعيش وحيدا ، بدأت تلاحظنى وتهتم بأمرى وتكثر من الابتسام ومن التزين على نحو أشعرنى بغرضها . وكان من الممكن عندئذ أن أنقطع عن دخول البيت ، وأن أكلف الساعى بحمل القضايا بدلا منى ، مراعاة لك وخشية من التمادى فى هذا الطريق . هذا ما كان يقضى به الخلق السليم . ولكنى على العكس ، كنت أحس فى نفسى الرضا والراحة والتلذذ أن استطعت غزو قلب هذه السيدة العظيمة والدة رئيسى . وصرت أشجعها وأكثر من زياراتى بحجة وبغير حجة ، وأتخير الأوقات التى أعلم أنك فيها متغيب عن البيت ...

وتوثقت العلاقة بيننا ورفعت الكلفة إلى حد أن جذبتنى من يدى ذات مساء ، وأدخلتنى حجرة نومها لتطلعنى على بعض ثيابها الجديدة كما زعمت وتسألنى الرأى فيها وأرتنى بالفعل بعض ثياب داخلية شفافة . ولم يبق هناك شك فى رغبتها الحقيقية ، وكادت تهم بى على نحو صريح ، وقد لمعت عيناها بذلك البريق الذى نعرفه عندما تريد المرأة .. ورأيت الفرصة مواتية فتمنعت عليها وأنا أظهر الشغف . وقلت لها إن شرطى هو الحلال ، وأن علاقتنا يجب أن تقوم على أساس الشرع ، وليس على حرام ، وتصورت فى تلك اللحظة ارتفاع قدرى فى نظر نفسى ونظرك ونظر زملائى ومعارفى يوم أصبح زوجا لوالدتك . وتم لى ذلك بالفعل ، ودخلت بيتك زوجا وسيدا مطاعا . وخرجت أنت منه . وكان هذا طبيعيا . إذ ليس من المعقول توقع غير ذلك ، وإن حرجنا أنا ووالدتك من سكناك معنا لم يكن يقل عن حرجك .

فما أظنك كنت تطيق أن ترى بعينيك كيف استطعت السيطرة بقوة شبابى وفتوتى على أمك التى عليك احترامها وتقديسها . هذا الشعور عندى بأن من تحترمه أنت أعلوه أنا كان يملؤنى زهوا وخيلاء ، ويعوضنى كل شعور بالنقص والضعف ، ويمدنى بقوة كنت أفتقدها فى نفسى. قوة السيطرة التى كنت أراها فى رؤسائى ، وأنت منهم . سيطرة إصدار الأوامر ، تلك التى طالما تمنيتها . إنها لم تكن منكم ،

ولا سيما أنت الدمث المهذب ، نابعة من قوة مادية ، بل هى من قوة معنوية ، أما سيطرتى على والدتك فقد كانت صادرة عن قوة مادية جسدية بحتة . وكنت أعرف أن اليوم الذى تتراخى فيه قوتى البدنية هو اليوم الذى تتراخى فيه قبضتى على أملك . وكانت هى تعرف ذلك . ولم تكن تضيق بسيطرتى ، بل كانت تستنيم لها باستمتاع مرتشفة عصارة هذه القوة إلى آخر قطرة فيها . إلى أن جاء اليوم الذى خشيته . فقد أفرطت فى استنزاف قوتى ، مرضاة لها وتأكيدا لسيطرتى .. كانت مصارعة جسدية أقابلها دائما بالتحدى . وخارت قوتى فى النهاية . ولم أستطيع أن أشبع رغبتها . فانهالت على تقريعًا . وصارت تقول لى كل ليلة « يا خيبتك يا خيبتك ! »

.... وعاد إلى نفسى الشعور بالمهانة . وأصبح موقفى حرجا . وكاد مقامى فى البيت يهبط إلى مقام الخدم . وبعد أن كنت أنا الآمر الناهى صرت أنا الذى أتلقى الأوامر . وتعاطيت بعض الوصفات . ثم حاولت معها محاولة أخيرة باءت أيضًا بالفشل . وضحكت هى ضحكتها المستهزئة ورددت كلماتها الساخرة : « يا خيبتك القوية ! » ..

فما تمالكت وصحت بها « اخرسى ، اخرسى ! » ولكنها انفجرت بالسباب الفاحش والطعن فى رجولتى . فطار صوابى ووضعت كفى

على فمها لأسكت صوتها الذى يرن فى أذنى بأفظع ما يذل الرجل ، وعضت هى بأسنانها أصبعى ، فأطبقت بكل قوتى على ذلك الفم الذى لا يريد السكوت ، إلى أن سكت فعلا . ووقفت معه كل حركة فى جسمها . وعندما ثبت إلى رشدى كانت إحدى يدى لم تزل على فمها والأخرى قابضة على عنقها.لقد فارقت الحياة ، ما هذا الذى فعلت ؟: ما هذا الذى فعلت ؟.. جعلت أكرر هذه العبارة كالمجنون ، وصرت أبكى كالطفل ، وقد رأيتنى أنت وأخوك الطبيب على هذه الحال من الجزع والأسى .. لم يكن ذلك تمثيلا أو تظاهرًا بل كان ذلك حقيقيا . لأنى لم أتصور أن أكون قاتلا .. ولذلك رفضت نصيبى كما تعلم فى ميراث المرحومة .. وذهبت إلى حال سبيلى . ومضت الأيام واستقر بى المقام فى مدينة صغيرة من مدن الأقاليم . وهناك تزوجت زوجة صالحة تصغرنى ببضع سنوات . مدرسة أطفال . شاركتنى حياتى على أحسن ما تكون المشاركة . وكنا نتعاون معا فى كل شىء ، حتى فى تصحيح الكراريس لتلاميذها . وأنجبت لى بنتا وولدين ، عكفنا على تربيتهم وتنشئتهم إلى أن دخلوا الجامعة ، وتخرجت البنت طبيبة تعمل فى أحد المستشفيات وتزوجت بدورها طبيبًا ، أما الولدان فأحدهما اليوم مهندس يعمل فى إحدى الشركات والآخر ، ويا للمصادفات ، وكيل نيابة ! وكلما

تصورت أنه يحقق مع القتلة وهو يجهل أن أباه قاتل ، تملكتنى الرعدة . وإنى لا أكف عن تأمل ما حدث لى وما وقعت فيه من زوجة طيبة وأولاد ناجحين .. إنها سعادة ما كنت لأستحقها . أترى الله قد غفر لى !؟.. أترى عقابى ينتظرنى فى الآخرة ؟!. هذا ما أسائل فيه نفسى وأنا موشك على لقاء ربى . وأنت .. يا من كنت خير رئيس لى يوم كان العمل فى النيابة يجمعنا أيام الشباب ، ماذا فعلت بك ؟! وأى ضيق سببته لك ؟!. ليس من المعقول أن أفكر فى صفح ، فإن أقل ما أنا جدير به عندك هو الاحتقار . لعلك تسائل نفسك وأنت تقرأ رسالتى هذه عن فائدتها الآن ؟.. أهو الاعتراف بالجريمة والندم عليها ؟.. إذن أما كان الأفضل أن أقدم نفسى إلى العدالة فى الوقت المناسب ؟ لماذا أحجمت ؟.. من السهل أن أجيب بأنه نفس السبب الذى جعلك تحجم عن كشف الجريمة والإبلاغ عنها فى وقتها : صيانة سمعة المرحومة .. ولكن قد يكون الأصح أن أضيف شيئا آخر هو : جبنى ونذالتى !.. وبعد .. ها أنا ذا قد قلت لك كل شىء ، وأزحت عن صدرى ما كان يعذبنى وأخفيه طوال الأعوام .. « مرؤوسك المجرم ..»

طويت هذه الرسالة ، وانتظرت مجئ زميلى القديم إلى أن عاد بعد أيام كما وعد وبادرنى قائلا :

ــ قرأتها ؟

قلت له وأنا أردها إليه :

ــ نعم .

ــ وما رأيك ؟

ــ ها هى ذى الحقيقة قد انطلقت من منبعها ، كالبخار المكتوم حين يرفع عنه الغطاء .

ــ ألم يستلفت نظرك شيء آخر ؟ باعثه على ما فعل ..

ــ شعوره بالمذلة .

ــ وهذا الشعور بالمذلة هو الذى أدى إلى رغبته فى السيطرة .

ــ والسيطرة لا بد لها من القوة .

ــ وما هى القوة ؟

ــ علميا ربما كانت هى الطاقة .

ــ وما هى الطاقة ؟

ــ ربما كانت القوة أو مصدرًا لها ، وربما كانت القوة هى الطاقة أو مصدرًا لها ..

ــ أرجوك كلمنى بكلام مفهوم لى ..

ــ صدقت فلنترك هذه التعاريف المعتمدة على الألفاظ ، لأن الألفاظ خداعة ...

ـــ إذن لا سبيل إلى معرفة معنى القوة التى تؤدى إلى السيطرة ؟

ـــ ليس من الضرورى أن تؤدى القوة إلى السيطرة ..

ـــ وهل يمكن أن تؤدى إلى شىء آخر ؟..

ـــ هذا يتوقف على نوعها وعلى توجيهها ..

ـــ وما هى أنواعها .؟

ـــ لا بد أولا أن نعرف ما هى ..

ـــ حيرتنى يا أخى ..

ـــ اسمع .. هذه مسائل تحتاج إلى تفكير .. عد إلىّ بعد أيام .. حتى أقلب الأمر على وجوهه ..

ـــ وهو كذلك .

ونهض منصرفًا . وأسرعت أنا بالذهاب إلى مغارة المقطم ، لأنادى وأحاور ذلك الصوت المنبعث هناك ، صوت الكوكب الذى اعتدت مناجاته ومحاورته فى هذه المسائل .. وكما فعلت من قبل اتجهت إلى وسط المغارة ، واقتربت من البئر العميقة ، ومددت رأسى ، وسعلت قليلا قبل أن أهم بالكلام ، وإذا بالصوت من البئر قد بادرنى هو قائلا :

ـــ خيرًا !..

فقلت له متعجبًا :

— كيف عرفت أنى أنا ..

— وهل هناك غيرك . ما من أحد سواك يزورنى . وما هى مشكلتك اليوم ؟..

— بسيطة . إنه مجرد سؤال

— نعم . كالعادة . تفضل !..

— ما هى القوة ؟..

— سؤال بسيط فعلا .. ولكنه كالعادة أيضًا يتفرع ويتشعب حتى يتعذر عليك الإمساك به ..

— ألا يمكنك تلخيص الإجابة فى عبارة ؟..

— إذا شئت . ولكن هذا لن يغنى شيئًا ..

— قل على أى حال ...

حسن استخدام الوسائل

— ربما كان من الممكن تعريف القوة بأنها حسن استخدام الوسائل للغايات .

— إنك لم تزدنى علما بشىء . أرجو منك إيضاحًا ..

— ألم تطلب الإجابة فى عبارة .. هذه هى العبارة ولكنك الآن

تريد الإيضاح . وهذا شيء آخر ..

ـــ نعم .. أريد الشيء الآخر . إن كل كلمة فى هذه العبارة تحتاج إلى تحليل .. فمثلا هل لا بد للقوة من غاية ؟..

ـــ طبعًا . وإلا كيف نعرفها ؟.. نحن لا نعرف القوة إلا بتوجيهها إلى غاية أو هدف . وبدون ذلك تصبح مجرد طاقة .

ـــ وما الفرق بين الطاقة والقوة ؟

ـــ الطاقة قوة غير موظفة . قوة خاملة نائمة . فالراديوم مثلا له طاقة إشعاع ضخمة موجودة فيه دائمًا . ولكنها تصبح قوة فعالة حارقة مدمرة إذا وجهت إلى الأجسام أو إلى خلايا الأورام . والشخص النائم طاقاته معه نائمة ، فإذا استيقظ وسار فى الحياة استيقظت معه طاقاته وعندما يوجهها إلى أغراض حياته فإنها تصبح ما نسميه قوته ، وكذلك المسجون والمجنون ، طاقات بلا غايات . وقطارات بلا عجلات .

ـــ إذن نقول : طاقة الشمس ولا نقول قوة الشمس ، لأن أشعتها غير موجهة إلى هدف بعينه ..

ـــ بالضبط . وهذا يحدث فى الطاقة الكهربائية ، فإنها إذا وجهت إلى الإضاءة ، تحدد لها هدف وقلتم عن المصباح الكهربائى إنه قوة كذا شمعة وإذا وجهت إلى محرك آلة أو سيارة قلتم قوة كذا حصان ..

— إذن القوة لا تكون إلا إذا وجهت إلى هدف وغاية ..

— نعم .

— وأنت أيها الكوكب ؟ هل أنت طاقة أو قوة ؟

— أظن أنى قوة . لأنى أتحرك لأتفادى جاذبية الشمس .

— وهل هذا هدف ؟

— طبعًا . الجاذبية هدف محدد لأنه فعل موجه إلى غاية محددة . ولذلك تقولون قوة الجاذبية للشمس . ولا تقولون طاقة الجاذبية ، كذلك القوة العكسية وهى تفادى الجاذبية فإنها فعل محدد لغاية محددة ، أما إذا لم يحدد لهذه الجاذبية فعل فإنها تكون كقطعة الحديد المغطس التى لا توجه إلى جذب شيء وتترك ملقاة فى مكان مهمل ، فإذا وضع على مقربة منها دبوس صغير فإنها تنشط لجذبه فى الحال .

— إذن لا فائدة من الطاقة إذا لم تتحول إلى قوة . والقوة لا تكون إلا بتحديد العمل والتوجيه إلى غاية ..

— نعم . عرفنا الغاية فما هى الوسيلة ؟.

— أظن أن هذا شيء واضح . إذا حددت هدفك فلا بد أن تحدد الوسيلة التى توصلك إليه . فإذا كانت غايتك الذهاب إلى مكان ما فإن وسيلتك تتحدد بقرب المكان أو بعده . وإذا كانت غايتك الانتصار على عدو فإن وسيلتك تتحدد بما يملك وما تملك من سلاح .

ـــ ولكنك قلت إن القوة هى فى حسن استخدام الوسائل للغايات ..

ـــ هذا صحيح . إذ لا يكفى تحديد الوسيلة بل لا بد أيضًا من حسن استخدامها . إذ ما فائدة سيارة لا تحسن قيادتها ، وسلاح لا تحسن استعماله ؟

القوة المادية

ـــ كلامنا هذا محصور فيما يبدو فى القوة المادية ، فهل هذه القوة المادية هى كل شىء ؟..

ـــ لا بالطبع . ولكنها مع ذلك إذا أحسن استخدامها فإنها تحدث آثارا خطيرة . خذ مثلاً المغول والتتار ، تلك القبائل والجماعات ، كيف استطاعت الإغارة على أمم عظيمة والإطاحة بحضارات كبيرة ؟.. إنها ركزت تركيزًا شديدًا على حسن استخدام ما بيدها من سلاح . وكان السلاح فى عهدها واحدًا فى أيدى الجميع ، لا يخرج عن السيف والرمح والدرع . ثم الحصان . فى الدولة المتحضرة والبدائية على السواء . ولكن مشاكل الدولة المتحضرة متعددة ومشاغلها الروحية والعقلية معقدة ، فى حين لم يكن لتلك القبائل

والجماعات من شاغل سوى التدريب المستمر على استخدام السلاح ومن كان يذهب إلى قرية من قرى التتار أو المغول كان يدهش لما يراه هناك من اللعب طول النهار بالسيف وامتطاء الخيول وتربيتها فى المراعى الواسعة لإنتاج أحسنها وأسرعها .. خلايا من الآدميين كل همهم وعملهم السيف والخيل . وعندما شعروا أنهم بلغوا الذروة فى هذه القوة المادية اندفعوا بها إلى الإغارة والغزو . ولم يشعر أهل الحضارة المستقرة إلا وسيول من الخيول وبروق من السيوف قد اجتاحتهم اجتياحًا .

— وحتى عند الأفراد نجد مثل ذلك . فهناك الرجل المتزن فى صحته البدنية والروحية والعقلية ، وهناك آخر قد انقطع إلى تقوية عضلات ذراعيه ، وأخذ يتدرب على استخدام يديه ، فإذا هو ملاكم ، وبلطمة واحدة يستطيع القضاء على رجل يفوقه عقلاً وروحًا وثقافة ..

— إذن ها أنت ذا ترى أن تنمية عضلة والتدريب على حسن استخدامها يولد قوة تحدث نتائج خطيرة ..

— نعم . ولكن الملاحظ هو أن هذه النتائج الخطيرة التى تحدثها القوة البدنية هى دائمًا من قبيل الإغارة والاجتياح والسيطرة ..

— طبعًا . وكيف تريد للقوة البدنية أن تظهر بغير التغلب على

طرف آخر ؟

ـــ هذا صحيح . ولكن القوة البدنية سريعة الزوال . فهى تنتهى بهبوط الغالب ونهوض المغلوب ..

ـــ فعلاً . كما حدث لإغارة قبائل الهكسوس على مصر ..

ـــ وكما يحدث لسيطرة الرجل على المرأة بالقوة البدنية !..

ـــ نعم . لأن القوة البدنية تستهلك نفسها إذا وجهت لمثل هذا الهدف ..

ـــ هل القوة البدنية دائمًا عدوانية ؟

ـــ يجب أن تفسر لى أولاً كلمة العدوان .. لا شك أنك تقصد به التغلب على طرف آخر للاستحواذ عليه وعلى إرادته وممتلكاته ..

ـــ نعم . هذا ما أقصد .

ـــ فى هذه الحالة هى فعلاً عدوانية . ولكن عندما طرد أحمس بجيوشه الهكسوس من مصر لم يكن عمله عدوانيًا ..

ـــ حقًا . لكل هل يمكن القول إن القوة البدنية هى قوة غير خلاقة . فهى تستخدم إما فى الهجوم أو فى الدفاع . فى الإغارة أو فى طرد المغير . وفى الحالتين لا تضيف شيئًا ولا تخلق شيئًا .

ـــ ربما كان الأمر كذلك . إنها بالطبع ليست مثل القوة الروحية أو القوة العقلية فى الخلق والإضافة إلى رصيد البشرية ..

القوة الروحية

ـــ وهل القوة الروحية يمكن أن تعمل بذاتها ؟.. دون سند من قوة مادية ؟..

ـــ هذا حدث بالفعل فى المسيحية . لقد انتشرت فى أول عهدها بقوة العقيدة وحدها . وكان المسيحيون الأوائل يلقى بهم إلى الوحوش وهم ينشدون ويغنون . وكما حدث أيضًا فى الإسلام قبل الهجرة من مكة ، يوم كان المسلمون يعذبون وهم يتلقون التعذيب من أجل العقيدة ثابتين صابرين . إن القوة الروحية هنا هى التى تعطى البدن قوة الاحتمال وليست قوة البدن هى التى تسند قوة الروح ...

ـــ ولكن بعض الأديان استند بعد ذلك إلى القوة المادية ليضمن سرعة انتشاره .

ـــ والعكس صحيح . فالقوة المادية تعتمد أحيانًا على القوة الروحية لتدعم صلابتها . فقد أدرك الغزاة والفاتحون ما للعقيدة من سحر خفى لا يقاوم ، وذلك منذ عرفوا كيف يتلقى المؤمنون التعذيب بالصمود . وفهموا أن الإيمان ليس هو فى الشعائر فقط والمظاهر ، ولا حتى فيما يدعو إليه من إصلاح ، ولا ما يبشر به من منافع أو ما يعد به من ثواب ، إذ ليس الفقراء وحدهم والمحتاجون هم

الذين آمنوا ، بل أيضًا بعض الأغنياء والأقوياء ممن لا يبتغون من الدين منفعة . إنما هى شىء فى جوهر الدين وفى داخله هو الأعظم . إنه شعاع عجيب يملأ الصدور نورًا والنفوس راحة واطمئنانًا . إنه شعور لا يمكن وصفه ويحار العقل فيه ، لأنه فوق العقل ، فإذا وضع فى يد هذا الشىء سيف فإن قوته تصبح هائلة ..

— وهذا يفسر لنا الحروب الدينية القديمة ..

— بل الحروب الحديثة أيضًا . قلما تقوم حروب اليوم دون أن تستند إلى قوة روحية . وليس من الضرورى أن تكون دينية بالمعنى القديم ، بل هى أديان أخرى فى صورة قيم ومذاهب ، مثل الحرية والديموقراطية والاشتراكية ونحو ذلك . وحتى الحروب العدوانية لا بد أن تغلف نفسها بغلاف مذهب مزيف من المعانى المقبولة والقيم البراقة ..

— وهل تعتبر الحرية والديموقراطية والاشتراكية من المذاهب الروحية أو هى نابعة من القوة العقلية ؟..

— هى فى الأصل نابعة من القوة العقلية ، لأنها جاءت نتيجة تفكير وتمحيص ، ونمت وتطورت .. ولكنها بعد أن استقرت فى الوجدان حقيقة لا تقبل المناقشة عند المؤمنين بها فإنها تصبح عندئذ قوة روحية ..

ـــ إن ما يفصل بين القوتين العقلية والروحية هو أحيانًا دقيق كالخيط الرقيق .. ألا ترى ذلك ؟..

ـــ إن الفصل بينهما هو ما يقبل المناقشة .. وما لا يقبل المناقشة ..

ـــ لقد قلنا الآن إن القوة الروحية تقترن أحيانًا بالقوة المادية.فهل تقترن كذلك القوة الروحية بالقوة العقلية ؟.

ـــ بالطبع . وباقترانهما يخرج الفن .

ـــ هل تريد أن تقول إن الفن هو وليد هاتين القوتين ؟

ـــ أظن ذلك . وإلا فكيف نصف الفن ..؟ أهو ينتمى إلى القوة العقلية وحدها ؟.. إن العقل بدون شك ضرورى من ضروراته . ولكن هذا ليس كل شيء ، هناك الإحساس والشعور . إن الفن ليس مجرد عملية حسابية . ولا هو مجرد تفكير خالص . بل هو شيء يتلقاه القلب إلى جانب العقل . وما دمنا نقول القلب فقد دخلنا فى منطقة الروحية .

ـــ قلت الآن إن العقل يقبل المناقشة والروح لا تقبل ذلك ، فما موقف الفن هنا ؟..

ـــ الواقع أن موقف الفن مما يدعو إلى الحيرة والعجب ، كموقف الابن بين والدين متناقضين . غير أنه ما دام ينتمى إلى الاثنين فلا بد أن يأخذ شيئًا من كل منهما . فنحن عندما نتأمل عملاً فنيًا جيدًا فإنه يقع

فى قلوبنا فى الحال موقعا حسنا . ثم يأتى العقل فى صورة باحثين ودارسين فيحللون عناصره ويناقشون ما فيها من صواب أو خطأ . وكل ذلك بمعزل عن حكم القلب والإحساس ، الذى يحب ويعجب بالعمل الفنى دون اعتبار لأحكام المناقشين بأساليب العقل .

القوة العقلية

ــ لقد تكلمت عن اقتران القوة المادية بالقوة الروحية ، وعن اقتران القوة الروحية بالقوة العقلية ، فهل يمكن اقتران القوة العقلية بالقوة المادية ...؟

ــ بدون شك .. ولعل هذا الاقتران هو من أبرز سمات عصورنا الحديثة . وإذا حددنا القوة العقلية بأنها قوة العلم وتركنا الفلسفة جانبًا ، مع كونها هى أيضًا من نتاج العقل ، فإن العلم هو الابن الذى ولدته الفلسفة كما ولدت المذاهب المختلفة . والفلسفة ، وهى الأم الجالسة المتأملة ليست قوة فى ذاتها ولكن القوة المباشرة هى فى أبنائها من علوم ومذاهب . واقتران القوة العلمية بالقوة المادية هو الذى جعل لعصرنا الحاضر هذه السيطرة على الطبيعة ، وعلى من لا يملك العلم ..

ـــ حقا .. وإذا تذكرنا حروب التتار والمغول ، فإنه لا يمكن أن نتصور اليوم أقواما من هذا الطراز يستطيعون أن يجتاحوا حضارة من الحضارات .

ـــ طبعًا .. لأن أسلحة اليوم لم تعد هى السيف والرمح والدرع ، بل هى أسلحة تخرج من قوة العقل والعلم . والحرب اليوم لم تعد بين سيف وسيف ، بل بين علم وعلم . وسلاح اليوم يديره العقل أكثر مما تديره اليد .

ـــ يظهر أن القوة المادية ليست بذات قيمة باقية إذا لبثت وحدها و لم تقترن بقوة أخرى . حتى فى أيام المغول والتتار ، فإن نجاحهم السريع الداهم كان كالريح العاصفة التى تهب ثم تمضى ، ولا تترك شيئًا بعدها غير بعض النوافذ المحطمة . ولو أن المغول والتتار أيام غاراتهم على غيرهم بالقوة المادية كانت فى أيديهم قوة روحية أو عقلية لما تلاشوا هكذا سريعًا ..

ـــ هذا صحيح .. ولذلك لا يمكن أن نتصور اليوم تفوقا أو نجاحًا للقوة المادية بمفردها .

ـــ حتى القوة المادية فيما أظن قد تغير مفهومها فى عصر العلم ، وإذا وجد اليوم تتار ومغول وأرادوا حربًا فسلاحهم لا بد أن يكون طائرات قاذفات ..

— ومن أين لهم هذه الطائرات القاذفات ؟!

— يشترونها من البلاد التى صنعتها .

— تقصد من البلاد التى تملك القوة العقلية ؟

— طبعًا .

— وهل ستكون هذه الحرب من قوم لا يملكون القوة العقلية ضد من يملك هذه القوة ؟!

— أغلب الظن أن هذا مستحيل .. ولا بد أن تكون مثل هذه الحرب بين بلدين فى نفس الوضع ونفس المستوى العقلى ..

— إذن لو وجد التتار والمغول اليوم لكانت حروبهم فيما بينهم . ولا يمكن أن يفكروا فى اجتياح حضارة تنتج المخترعات الحربية القائمة على القوة العقلية العصرية .

— حقًا ... ولكن .. ألا يمكن أيضًا لهولاء الأقوام أن يفكروا فى تغيير حالهم وأن ينقلوا أنفسهم من البداوة إلى الحضارة ..؟

— لا بد لهم إذن من تغيير تفكيرهم القديم ، والعمل على اكتساب القوة العقلية . والقوة العقلية التى تنتج فى عصرنا القوة المادية الرهيبة لا يمكن اكتسابها إلا بالعقلية العلمية . والعقلية العلمية لا تكون ولا تقوم إلا على أساس المناقشة الحرة والبحث والفحص والتمحيص لكل الحقائق والعناصر والقيم والمسلمات وتركيب الكائنات ..

ـــ وما المانع من ذلك ؟

ـــ فى المجتمعات البدائية هناك دائمًا موانع ...

ـــ ولكن هناك مجتمعات حضارية تنهزم أيضًا .. أمام مجتمعات حضارية أخرى ..

ـــ هزيمة البلد المتحضر لا قيمة لها ولا يعتد بها . لأن القوة العقلية لا تنهزم .. وهى سرعان ما تنتج تفوقا فى ناحية أخرى . كاليابان انهزمت حربيًا وانتصرت اقتصاديا . وكذلك ألمانيا وأيطاليا أما فرنسا فهى كلما انهزمت تألقت ..

ـــ فعلا .. الحضارات لا تموت .. الحضارة تنتج الحضارة كالشجرة المثمرة إذا هرمت خرج من بذورها أشجار أخرى ..

ـــ إن الفكر هى القوة الدائمة المتجددة .. من التفكير خرجت الفلسفة ، ومن الفلسفة خرجت ـــ كما قلنا ـــ القوة الروحية والمذهبية ، ثم القوة العلمية .. وكل هذا يسمى الحضارة ..

ـــ لكن .. بماذا تفسر حياة مصر هذه الالآف من السنين على الرغم من هزائمها ..؟

ـــ لأنها فى أيام هزائمها كانت تتغذى بحضارات المغيرين وتهضمها وتحيلها دماء جديدة فى شرايينها تقوى بها على طردهم . وهى يوم يغلق فمها عن الابتلاع وتضعف معدتها عن الهضم ، فإنها تتدهور ،

ولا أقول تموت ..

ــ ألا يمكن أن تموت يومًا ..؟

ــ لا يمكن وآثار حضارتها مع الحضارات كلها على أرضها . إنها تنام أحيانًا ولكنها تنهض .. تركيبها الطبيعى هو خلق الحضارة ثم امتصاص الحضارات الأخرى ..

ــ ولكنها تجتر أحيانًا العلف الجاف .

ــ تقصد الماضى العتيق الذى لا عصارة فيه ؟.. إن فى خزائن الماضى ، مع ذلك أوراقًا خضراء .. ربما قصر النظر وضعف الوعى هو السبب فى سوء الاختيار ..

ــ حقًا .. إنها عندما يستيقظ فيها الوعى وتحسن الاختيار وتلائم فى غذائها بين الجيد الحى فى تراثها ، والجديد الناضج فى الحضارات المعاصرة ، فإنها تعود إلى قوتها الخلاقة ، لتضيف بشخصيتها المتميزة ما يبهر البشرية ..

ــ نعم .. القوة العقلية خلاقة دائمًا .

القوة الاقتصادية

ــ ولكن هناك قوة لا ندرى أين موضعها ؟.. أهى تنتمى إلى القوة المادية أو القوة الروحية أو القوة العقلية ، تلك هى القوة

الاقتصادية ..؟

ـــ من الصعب تحديد الخانات بهذا الشكل . فإن كل هذه القوى متداخلة بعضها فى بعض بنسب متفاوتة . وعندما عرفنا القوة تعريفًا عامًا ، بأنها حسن استخدام الوسائل للغايات ، لم نحدد تمامًا الفواصل بين ما هى وسيلة وما هى غاية .. فالطعام مثلاً إذا اعتبرناه غاية نبحث للوصول إليه عن وسيلة ، فإن هذا الطعام نفسه عندما نحصل عليه ونتغذى به ويمدنا بالحيوية والقوة ، فإنه عندئذ يصبح وسيلة للوصول إلى غاية روحية أو عقلية ..

ـــ ولكن الطعام فيما أعتقد هو الأمل والغاية ..

ـــ بدون شك . من أضأل الكائنات إلى أرقاها: من الجراثيم إلى الإنسان . كل الكائنات الحية تبحث أول ما تبحث عن غذائها . و المعرفة الأولى لكل كائن حى هى أن يجد غذاءه .. إن أولى الغايات كانت هى الغذاء ، وأولى الوسائل هى كيفية الحصول عليه . وعندما فكر الإنسان الأول فى وسيلة لصيده ، بدأ العلم . وعندما اكتشف الوسيلة بصنع سكين من الحجر ، بدأ العلم التطبيقى أو التكنولوجيا ، وعندما رسم على جدران كهفه صورة الحيوان الذى يصيده ، بدأ الفن .. وعندما رفع عينيه إلى السماء يستنزل المطر لزرعه ، بدأ الدين ..

ـــ إذن كل الأشياء العظيمة التى يفخر بها الإنسان قد بدأت من أجل الطعام . أى لأغراض اقتصادية .

ـــ ليس عند الإنسان فقط .. عند النملة أيضا .. إن النظام الاقتصادى فى عالم النمل ، وطريقة تخزين غذائه وادخاره لوقت الحاجة لما يدعو إلى العجب . ولعل له طريقة فى التوزيع أيضا قد تتمشى مع أحدث المذاهب والنظريات ..

ـــ إذن القوة الاقتصادية هى أولى القوى . ومن أجلها ظهرت كل القوى الأخرى ، فى صورة وسائل ..

ـــ هذا صحيح ، وإن كانت القوى الأخرى تطورت بعد ذلك إلى أن أصبحت لا مجرد وسائل للطعام ، بل غايات مستقلة ، أو وسائل لغايات أرقى من مجرد الطعام ..

ـــ حقا .. إن الدين والفن والعلم كلها اليوم وسائل للكشف عن حقائق أسمى وأعلى ..

ـــ نعم .. ولكن يبقى مع ذلك أن القوة الاقتصادية قد تطورت هى أيضا مع الإنسان ، كما تطورت وسائلها ، وأصبحت بالنسبة إلى الفرد وإلى الدولة مقياس قوة وسيطرة ..

ـــ فعلا .. لقد تغير مفهوم هذه القوة .. لقد كانت فى الأصل هى ضرورة حياة للكائنات الحية .. هى الغذاء الضرورى لحياة كل

كائن .. وما كان كل كائن يأخذ من غذائه إلا عل قدر حاجته .. لم يكن من الطبيعى أن يأخذ كائن على قدر قوته .. فالأسد مثلا ما كان يفترس القطعان من الماشية ليكدس جثثها قناطير مقنطرة للاعتزاز بقوته ، بل كان يفترس منها ما يفى بحاجته ..

ـــ حقا .. إن متاعبكم بدأت منذ اتخاذ القوة الاقتصادية مظهر عزة وسيطرة .. لقد كان أحد رجال الاقتصاد فى القرن الماضى يعرف الدولة القوية بأنها الدولة المتفوقة فى الزراعة والتجارة والصناعة وتملك المستعمرات .. وذلك قياسا على الرجل القوى وهو الأصيل المنبت الخطير المنصب الوافر التعليم ويملك عزبة من العزب.وظلت هذه الصورة للفرد القوى والدولة القوية زمنا طويلا ، وأدت إلى كثير من المنافسات والحروب . ونتج عن الحروب زوال الكثير من المستعمرات بتمردها واستقلالها ..

ـــ ونتج أيضا عن استقلال المستعمرات أنها تطلعت إلى هذه الصورة المعروفة عن الدولة القوية ، وأهم ما فيها الصناعة ، وأرادت أن يكون لديها هى الأخرى صناعة قوية ، حتى لا تكون مجرد عزبة .. وإذا نجحت فى إقامة صناعات كبرى تنافس بها الدول الكبرى ، كما تنافس بها بعضها بعضا ، فإن المصادمات لن تنتهى ..

ـــ لا بد إذن من عملية تنظيم على هذا الكوكب ..

ـــ هذا الكوكب الذى هو أنت .. إلى متى ستسيل الدماء على جبينك ..؟

ـــ إلى أن ينتهى جنونكم ..

ـــ جوننا ينبع من الرغبة فى السيطرة ..

ـــ إذا استطعتم أن تحولوا بحسن التصرف هذه السيطرة إلى تعاون فقد نجوتم ..

ـــ نعم .. ولكن كيف ...؟

ـــ يبدو فى الافق أن هذا ممكن .. مع التعقل والصبر والمثابرة .. انظر إلى الدول القوية فى أوربا ، التى كانت تتنافس فيما بينها على الأسواق ، حتى أكلتها الحروب ، ها هى ذى فى سبيل التعاون بدلا من التنازع ، وفكرت فى إنشاء السوق الأوربية المشتركة ..

ـــ أظن أننا مقبلون على عصر لن تكون فيه السيطرة ممكنة الوجود ..

ـــ هذا صحيح .. ويبدو أن الدول الكبرى قد فهمت ذلك . وأدركت أن السيطرة بالقوة وفرض الإرادة بالعنف أشياء فى طريقها إلى الزوال ، لأن العنف يولد العنف ، وقد أصبح مكلفا غير مربح .. بل إن الخسائر التى تنتج عنه من الجسامة بحيث لن يعوضها أى مكسب .

ـــ نعم .. إن التعاون الاقتصادى ، سواء كان فى صورة تكامل أو تبادل كما يحدث بين دول أوربا ، وكما هو فى سبيل أن يحدث بين الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة ، وبين هذه الأخيرة والصين ، هو خير حل لإبعاد فكرة السيطرة المدمرة ، والاقتراب من التنفيذ الحقيقى للتعايش فى ظل السلام والرخاء العام واحترام كل دولة لنظام الدولة الأخرى ومذاهبها ومبادئها وعقائدها ..

ـــ لهل هذا هو الذى سيضطر إليه الجميع غدا .. وهو ترك الحرية لكل شعب يختار بنفسه الطريق الملائم له ، المحقق لآماله والنابع من صميم إرادته وحاجته وظروف حياته وتطوره الاجتماعى .

ـــ كل هذا ممكن بالنسبة إلى الدول القوية ، ولكن الدول الضعيفة والمستقلة حديثا هل تترك لها الحرية فتنمو اقتصاديا وصناعيا ..؟

ـــ فعلا .. هذه هى مشكلة اليوم .. الدول الصغرى هى المشكل الآن ..

ـــ هل قدر لها أن تبقى دائما سجينة وضعها الاقتصادى ؟.. مصدرة للمواد الخام .. مستقلة سياسيا ، ولكنها لم تزل عزبة اقتصاديا ، يتحكم فى أسعار منتجاتها الاحتكاريون من سادة الصناعة الكبرى ..

ـــ هذا وضع لا بد أن يتغير يوما .. بكفاح هذه الدول الصغرى ،

وتطورها العلمى والاجتماعى .. وعندئذ تستطيع أن تتخصص فى نوع من الصناعات ملائم لبيئتها ، تسد به على الأقل حاجة سوقها المحلية ، وإذا بلغ إتقانها لهذه الصناعة درجة ممتازة ، فإنها قد تشق لها طريقا فى الأسواق العالمية ..

ــ وهل تتركها الصناعات الكبرى فى الدول القوية تشق هذا الطريق دون أن تخنقها ..؟

ــ أحيانا يحدث العكس .. فإن هذه الصناعات الكبرى تجد من مصلحتها شراء المنتجات فى الدول الصغيرة إذا كانت أرخص وأحسن ، وتتخفف هى من هذه الصناعة لتكرس جهدها وتتفرغ لصناعات أخرى أثقل وأعقد وأربح .. إنها قد لا تجد بأسا فى حصول الدول الصغيرة على الآلات والمصانع منها بأسعارها الباهظة ، وتأخذ هى منتجات هذه الصناعة بأسعار متواضعة ..

ــ معنى هذا أن الدول الكبرى بعد أن كانت تأخذ من الدول الصغرى المواد الخام والمنتجات الزراعية ، أصبحت تأخذ أيضا المنتجات الصناعية ؟

ــ إنه تقدم على كل حال . وانتقال من مرحلة الزراعة أو المواد الخام إلى مرحلة الصناعة والمواد المصنعة .. إنها خطوة أولى .. قد تعقبها ــ إذا تقدمت الدول الصغرى وتطورت ــ خطوات أخرى

نحو الصناعة الكبرى وإنتاج الآلات نفسها والمصانع ذاتها والمحركات الدقيقة والقطارات والطائرات ونحو ذلك ، مما لا تستطيع إنتاجه غير الصناعة المتقدمة فى بلاد العلم والحضارة الحديثة ..

ـــ وما الذى سوف يحدث عندئذ ، يوم تتقدم الدول الصغرى إلى هذا المستوى العالى من الصناعة الكبرى ؟.. ألن يقع ذلك التنافس الذى ذكرناه ، ويعقبه التصادم الذى تحدثنا عنه ..؟

ـــ إنها حلقة مفرغة .. ولا حل وقتئذ إلا ما ذكرته لك الآن .. وهو التخطيط الشامل للاقتصاد العالمى كله ، على أساس التعاون ، واستبعاد فكرة السيطرة ..

ـــ نعم .. السيطرة ، هذه القوة المدمرة ..؟

ـــ ولا يقابلها إلا التعاون ، هذه القوة المثمرة ..؟

ـــ تذكر أنى حدثتك عن ذلك الشخص الذى أراد السيطرة ، فتزوج امرأة فى سن أمه ، وانتهى إلى قتلها ، ثم تزوج مرة أخرى على أساس التعاون فاستقامت حياته معها وكانت حياة مثمرة ، وأنجبا ذرية صالحة ... وقد اعترف بذلك فى آخر حياته ، وندم أشد الندم على سوء فهمه لمعنى القوة ..

ـــ هذا شىء طبيعى .. وإن جهلنا بمعنى القوة الذى يؤدى بنا إلى الضعف .. إن قوة التعاون تنتج من إضافة قوة إلى قوة .. أما قوة

السيطرة فتأتى من تضخم قوة على حساب قوة .. إن قوة جسم الإنسان لا تنبع من طغيان خلايا ، بل من التناسق والتعاون والتعادل بينها جميعا ..

— فعلا .. طغيان خلايا على خلايا هو مرض .. إنه السرطان ..

— نعم .. والإنسان يعرف ذلك فى جسمه ، ومع ذلك يمارسه فى سلوكه العام ..

— أهى نزعة فى الإنسان تدفعه إلى التدمير ..؟

— الملاحظ أن الطفل ينزع إلى التدمير قبل أن يعرف البناء .. وكذلك الإنسانية عندما تقدمت فى العلم ، واهتدت إلى الأسرار النووية الرهيبة ، فإنها اتجهت بها إلى اختراع القنابل التى تهلك وتدمر وتبيد ...

— إذن الإنسانية لم تزل فى طفولتها على الرغم من هذا التقدم العلمى الخطير ..

— بالطبع .. هى لم تزل فى طور الطفولة الأولى .. وإذا كان عمرها مليون سنة ، فما قيمة هذا المليون الواحد إلى جانب الملايين السبعين التى عاشها حيوان مثل الدينوصور قبل أن ينقرض . ولعله إنقرض لأن جسمه كان أضخم من عقله . وربما انقرض الإنسان أسرع منه ، لأن عقله أضخم من قلبه ..

— ماذا نقصد بقلبه ؟

— أقصد نزعة العدالة والإنصاف والسلام .. ولو أن هذه النزعة الخيرة نمت بمقدار نمو عقله لاستطاع أن ينقذ نفسه من الانقراض السريع . فهو مقضى عليه بالهلاك جوعا إذا لم يستطع أن يقرن القوة العلمية بالقوة الاقتصادية .. إنه حتى اليوم يقرن القوة العلمية بالقوة المادية لصنع أسلحة التدمير .. فإذا كرس اهتمامه بصورة فعالة ورغبة صادقة لجعل القوة العلمية تقترن بالقوة الاقتصادية لصنع طعام يسد حاجة البشرية كلها ، فإن تاريخ الإنسان يتغير ويكون الإنسان قد خرج من مرحلة الطفولة ، ليدخل مرحلة جديدة لا تعرف التدمير ولكن تعرف البناء ..

— ومتى يمكن فى تقديرك الدخول فى هذه المرحلة الجديدة ..؟

— إذا زال خوف الإنسان من الإنسان ... ؟

— وما الذى يدعو إلى هذا الخوف

— الطغيان .

— وكيف يأتى الطغيان ..؟

— من الرغبة فى السيطرة ..

— وكيف نقتلع هذه الرغبة فى السيطرة ؟!

— لست أدرى .. هذا شىء يخصكم فابحثوا فيه .

ـــ ربما كانت ضرورة الحياة تدعونا إلى ذلك يوما ..

ـــ ربما .. إن قوة الحياة تدعو إلى التكيف ، وما لا يتكيف ينقرض ..

ـــ يقال أيها الكوكب إن بعض الحيوانات ، ومنها الدينوصور قد انقرض لأنه لم يستطع التكيف مع التغيرات التى حدثت لك ..

ـــ طبيعى ..

ـــ أتظن أنه قد تحدث لك تغيرات لن نستطيع نحن بنى الإنسان أن نتكيف معها ..؟

ـــ علمى علمك !

ـــ ألا تعرف ما سوف يحدث لك ؟

ـــ وهل تعرف أنت ما ينتظرك من مصير..؟

ـــ لا أعرف بالضبط .. ولكن مصيرى مرتبط بمصيرك أنت يا كوكبنا ..

ـــ مصيرك مرتبط بعقلك أكثر مما هو مرتبط بى .. لأن ما يمكن أن يحدث لى من تغيرات تؤثر فيك لا يكون قبل مليون سنة .. وربما فى خلال هذا المليون سنة القادمة تكون أنت قد صرت شيئا آخر ..

ـــ ماذا تعنى ..؟

ـــ ربما تضخمت القوة العقلية عندك تضخما يطغى على بقية

أعضائك ، فإما أن تنوء تحت وطأة هذه القوة وتنهار وتنقرض ، وإما أن تعادل هذه القوة العقلية قوة روحية ، وعندئذ قد ينتج من تعاون هاتين القوتين قوة هائلة تحدث تغييرات فى وظائف أعضائك وفى شكلك نفسه ..

ــ شكلى نفسه ؟.. يصبح غير ما أنا عليه الآن ..؟

ــ محتمل جدا أن تكون شيئا آخر غدا ..

ــ مثل ماذا ؟.. هل عندك فكرة ؟!

ــ عجبا لك !.. أتريد منى أيضا أن أتخيل لك !.. أين عقلك أنت وخيالك ؟!

ــ فى تخيلى أن القوة العقلية والقوة الروحية إذا لم تقم عقبات فى طريق تطورهما ، وتم بينهما التكافؤ فى النمو والتعاون فى الخلق والنشاط ، فإن القوة المادية والبدنية لا بد أن تتكيف معهما ، وهذا يقتضى منها تغييرا فى وظائفها وفى أحجامها .. ولعل هذا ما تقصده من تغير شكل الإنسان ..؟

ــ ربما كان الأمر أكثر من ذلك .. فى المدى البعيد ..

ــ هناك سؤال هام : ما مدى حدود القوة ؟.. عندنا طبعا .. هل تستطيع القوة العقلية أو الروحية أو المادية أو حتى الاقتصادية ، أن تنمو إلى غير حد ؟!

ـــ ما هذا الهراء ؟.. أيوجد شيء لا يحد ؟!.. كل شيء له حد أقصى فى القوة ، يتحتم الوقوف عنده . إن الخيط إذا شددته إلى أكثر من احتماله انقطع ، وإن الشجرة لا تظل تنمو بغير حد حتى تبلغ السماء . إن القوة هى القدرة الكامنة فى الأداة والوسيلة .. قدرة طاقتها محسوبة . فإذا استخدمت هذه القدرة بأكثر مما تتجه لها طبيعتها أو شحنتها ، فإنها تنكسر أو تنقلب إلى عجز .. وهنا نعود من حيث بدأنا ، عندما قلنا « إن القوة هى حسن استخدام الوسيلة للغاية » ..

ـــ حقا .. لقد عدنا إلى نقطة البداية ..!

ـــ هذا حالنا جميعا ..

ـــ وخاصة أنت ، الذى تدور حول نفسك وحول الشمس ، وتعود دائما من حيث بدأت .. كم مرة يا ترى عدت إلى نفس الدورة فى رحلتك الطويلة حول الشمس ؟!.. أظن أكثر من أربعة آلاف مليون مرة .. أى دورة ..!

ـــ تقريبا ..

ـــ ألم يخطر لك ذات مرة أن نقف قليلا لتستريح ؟

ـــ أمجنون أنت !

ـــ مجرد فكرة ..

ـــ ولماذا لا يقف قلبك لحظة ، وهو لا يكف عن الحركة طوال

حياتك ؟

— صدقت .. إن فى هذا موتى ..

— وموتى أيضا .

— نعم .. الوقوف عن الحركة موت ..!

— ووراء الحركة القوة الدافعة .. قوة الحياة .. أم القوى ..!

— حقا ..

— وأخيرا .. هل وجدت الإجابة عن سؤالى ..؟

— يعنى ..!

— ثق أنه لا إجابة كاملة عن سؤال فى هذا الوجود .. والمهم هو إيقاظ التفكير ... إن فى حركة الفكر القوة الدافعة إلى التقدم ..

— شكرا لك يا كوكبنا العزيز !

الفهرس

رقم الإيداع : ٥٧٧٩ / ٨٨

الترقيم الدولى : X ــ ٠٤٥٦ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ١٥٠ قرشا